في ظلال الحقيقة

وهو بحث في حقيقة الوجود

نجيب أشهيا

في ظلال الحقيقة

تأليف
نجيب أشعيا

تقديم الكتاب

واجب عليّ مقدس نحو مصر حيث شببت وعشت العشرة والعشرين زهرة العمر حيث نزلت على الرحب والسعة حيث صادقت واحببت وكافحت وجاهدت روحا وجسما فذقت طعم الحياة من حلاوة ومرارة فنلت غايتي الاولى وتجلت لي الحقيقة فنلتها غايتي الثانيه .

فمصر وطني الثاني بشخص سيدها الجالس على عرشها فؤاد الاول أؤدّي هذا الواجب فاقدم عروسة فكري وربيبة روحي شكرا لما كان ولما سيكون .

نجيب اسبيا

الفاتحة

— الفصل الاول —

على ضفاف النيل، تحت ظل النخيل، على مقعد من خشب في مقدمة الجزيرة، هناك كان يجلس شاب في مقتبل العمر حاسر الرأس يلاعب شعره النسيم يحول عينيه تارة الى الماء وطورا الى السماء مبتسما مرة وعابسا مرة أخرى. كان هذا الشاب يرتاد هذا المكان لجمال موقعه وطابها للراحة بعد عناء الاعمال ولما كان يوحي اليه هذا الموقع من الافكار التي كان يلذ له التفكير فيها. لم يكن يرتاح الى الاخذ بالظواهر فقط رغم حسنها او قبحها بل كان يحب التعمق في كل شيء ليصل الى معرفة اصول ما يشاهد أو يسمع فانه كان يطلب الحكمة في ارجاء هذا الكون.

انما الحكمة بنت الاختبار * تقتنيها النفس بعد الاعتبار

او بالأحرى كان يبحث عن الحقيقة بنفسه لانه في اوائل سني تلمذته كان قد سمع هذا البيت فتنبهت له حواسه واخذ من ذلك الحين في التفكير رغم ما كان يبدو عليه

مراداً من دلائل الخفة وعدم الاكتراث. لذا تربت في نفسه ملكة البحث رويدا رويدا الى ان تملكت منه فاصبحت فيه طبعا لا يهنأ له عيش الا بالتفكير للوصول الى الحقيقة أو البحث عنها . لم يكن يقرأ كثيرا لانه كان كثير الخيلاء لا يريد ان يتأثر بافكار الغير بل كان يريد ان يربي نفسه بنفسه ليكون له رأي خاص عن اقتناع شخصي الا انه كان اذا اثبت له بعد ذلك فساد رأيه ينقاد الى الصحيح بسرور عظيم وشكر . كان يحب المباحثة والاكثار منها مع كل الناس من مختلف الطبقات والاجناس الكبير والصغير العظيم والحقير نساء ورجالا فتية وفتيات لاعتقاده بان الروح العظيمة ليست لها طبقة او امة مخصوصة بل توجد في عموم الطبقات والاجناس. وكم كان اغتباطه عظيما عندما كان يتغلب رأيه على رأي محدثه فينقاد هذا مقتنعا اليه. خصوصا اذا كان المقتنع من ممتازي الناس ومعروفيهم ان علما أو مركزاً أو جاهاً

كانت عيشة صاحبنا هذا مزدوجة حياة الحاضر وحياة الماضي التي كانت دائما ماثلة بتذكاراتها امام عينيه لانه كان

يقول ان الانسان الحقيقي الذي يمكن ان يدعى بحق انسانا هو ذاك الذي يعيش بنفسه وبقلبه وبتذكاراته اكثر مما يعيش بجسمه.

ففي عشية ذات اليوم بينما كان شابنا جالسا على مقعده كالمعتاد اذ شعر بانزعاج خفي اخذ عليه افكاره فأخذ يبحث عن السبب في نفسه وحواليه. وفيما هو حائر لا يعرف لهذا من داع اذ ابصر على بعد خطوات منه شبحا يتحرك من وراء الاشجار قادما اليه ولما دنا وتبينه اذا به احد الدراويش رث الثياب عاري الرأس ضئيل الجسم يناهز السبعين من العمر ذو لحية بيضاء براق العينين متأبطاً جرابه متوكئا على عصا طويلة يمشي بتثاقل شديد كمن اعياه السير ولم يكد يقترب من صاحبنا حتى خفض نظره وحيا بكل احترام وطلب صدقة فناوله صاحبنا قطعة بقرشين فأخذها فرحا واراد ان يقبل يده شكرا وامتنانا. اما صاحبنا فقد سحب يده وتباعد قليلا فقال له الدرويش بارك الله فيك يا سيدي لقد أغنيت عوزي الليلة وقد اردت أن أقبل يدك علامة الشكر العظيم فلم تشأ. لذا فليكافئك الله

عني ويجزيك خيرا وينيلك مرامك. وهمّ بالسير الا ان صاحبنا لم يكد هذا الدعاء يصل الى سمعه حتى شعر بارتياح شديد ومال الى الاكثار من محادثة هذا الشيخ الغريب . فاستوقفه قائلا. يا هذا اراك تعبا والمسافة بيننا وبين المدينة قريبة لا تتطلب جهد السير. فاجلس هنا قليلا لنتحادث فالمكان جميل والهواء عليل وخذ هذه قطعة بقرشين اخرى وهذه سيجاره فدخنها فاخذ الشيخ القرشين والسيجاره وشكر وجلس

— الفصل الثاني —

بدء الحديث

بعد ان استراح شيخنا قليلا بادره الشاب بالسؤال قائلا. من أين أنت ياهذا وما اسمك وإلى أين قاصد ؟ فاجاب الشيخ وقال. اما من أين أنا فاني لا اعرف لي وطنا مخصوصاً أعيش هنا وهنا اطوي الفيافي والقفار وازور المدن والقرى متنقلا من مكان إلى مكان في أرض الله الواسعه ليس لي مقصد سوى البحث والتنقيب اراقب الطبيعة واستجليها المكنون لعلي اهتدي إلى سر وجودي وسر الوجود فادعني

ان شئت باحثا . فاكبر الشاب هذا الجواب وتبين له ان هذا الشيخ الذي ظنه اولا أحد الدراويش المتسولين ليس هو بالرجل العادي بل ان هذا الجسم الحقير المظهر يحوي نفساً كبيرة وهذا الرأس العاري المعفر بالغبار فيه عقل راجح عظيم ربما قل وجوده في أعظم الجامعات وسر كثيراً بسنوح هذه الفرصة التي أقامها له القدر عفوا لعله يستفيد منه بما يشفي غليله حيث ان غاية هذا الشيخ الباحث هي كما بدا من جوابه نفس الغاية التي يصبو اليها ويسعى وراءها. فقال له والى أية نتيجة وصلت ياصاح لعلك توفقت في ابحاثك ومراقباتك الى أمر حاسم تهديني اليه لاني وان اختلفت معك مظهراً وعيشة ففايتي هي نفس الغاية التي سعيت وتسعى أنت اليها فبالله عليك افدني وزدني افادة وايضاحاً فحدّق الشيخ فيه نظره كمن يريد أن يخترق أعماق افكاره ليرى حقيقة أمره هل صحيح مايريد هذا الشاب أو هل سؤاله هذا هو من باب الازدراء حيث ان هذا الامر قليل من يبحث فيه من الناس وأقل منه أيضاً من يعيره من الاهمية التي يجب ان تكون له . وبعد أن صعد بصره فيه مراراً

وصوبه وتحقق منه الجد أبرقت عيناه سروراً وبانت على وجهه علامات الارتياح فاجابه وقال :

يابني . ان البحث عن الحقيقة يجب أن يكون غاية كل عاقل ومفكر حتى اذا ما وصل اليها أو الى ما يدانيها سار معها أو مع ما يكون قد ظهر له منها موفقا أعماله مع سننها حيث ان السعادة الحقيقية والراحة التامة هي فيها ومعها .

لقد مررت بك الآن مرة وثانية دون أن تنتبه الي فرأيتك غارقا في تأملاتك فاستلفتت حالتك نظري وشعرت بميل اليك لم أعرف له أولا سببا ولكن لم البث أن ذكرت ماقيل « ان الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر اختلف » لذا وقفت اخيراً حيث رأيتني قادما محدقا بك النظر مفكراً واتيت بحركة تنبهت انت اليها

فبهت الشاب لهذا وعرف حينئذ سر الانزعاج الخفي الذى شعر به قبل أن يرى الشيخ

لقد ولدت يابني على ماقيل لي من ابوين صالحين لم اعرفهما لانهما ماتا قبل أن أبلغ الرابعة من العمر فربيت يتيما تتلاعب

بي أيدي الاغراب الى أن بلغت العاشرة . ففي ذات يوم
بينما كنت العب مع أحد أولاد الجيران ونلاعب كلبا صغيرا
نركض ذهابا وايابا والكلب يتبعنا متعبا اذ دست على غير
انتباه وقصد على رجل صاحبي فآلمه ذلك فأخذ يبكي ويصرخ
وقام ولطمني وجاء اخوه وأبوه وأشبعاني ضربا ولكما . ولما
كنت يتيما وحيداً فقيرا لم ار احداً يشفع لي بل أن الذين
حضروا أخذوا جميعهم يلومونني ويعنفونني فآلمني ظلمهم اكثر
من ضربهم وتأنيبهم ولم أزل لليوم أذكر هذه الحادثة التي
كانت السبب فيما أنا فيه وعليه لاني عندما تخلصت منهم
جئت الى الكلب الصغير فحملته وسرت هائما على وجهي
باكيا شاكيا ساخطا فبت تلك الليلة جائعاً في احدى المغائر
وفي صباح اليوم التالي قمت مبكراً أحمل كلبي أبحث عن شيء
نقتات به فأبصرت من بعيد راعيا آتيا مع قطيع كبير من
الغنم فركضت اليه وقبلت يده وطلبت منه قطعة خبز لآكلها
مع كلبي فهش في وجهي وبش وسألني الى أين أقصد ومن
أين أنا ومن أنا فأخبرته بجميع قصتي فرق قلبه لي وفتح جرابه
وأعطاني رغيفاً وأمسك أحدى النعاج وحلب منها قليلا من

اللبن وسقى كلبي فأكلت الرغيف واطعمت أيضا منه الكلب وفرحت جدا وأنست بهذا الراعي وقمت الى يده مرة أخرى اقبلها وأردت متابعة السير فاستوقفني وقال لي أن أبقى معه طول النهار وفي المساء يأخذني معه الى الدير حيث أن هذا القطيم هو لاحد الاديار وهكذا كان ففي المساء جئنا الى الدير وبعد أن أدخل الغنم الحظيرة ذهب وكلم أحد الرهبان فجاء الي وأخذني بيده الى الرئيس فسألني عن قصتي فأخبرته بها من أولها الى آخرها فسكت قليلا وفكر ثم ضمني الى صدره وقبلني وقال لي يابني اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد سمح لك بهذا الشر كي ينتج لك منه خيرا كما أن هذا الالم الذي نالك من ضرب هؤلاء الناس لك . لربما كان قصاصا عما آلمت به كلبك ولكن لا بأس من هذا فالنتيجة هي على كل حال خير لك فاني أقبلك هنا وستكون في النهار مع الراعي تساعده على رعاية ومراقبة القطيع وفي المساء سامر أحد الاخوة بأن يعلمك أصول القراءة وقواعد الدين ففرحت جداً جداً وشعرت بسرور داخلي وارتياح عظيم فقبلت يدى الرئيس وشكرت له هذا الصنيع . وهكذا

بقيت في خدمة الدير اثنتي عشر سنة أذهب في صباح كل يوم مع صديقي ومخلصي الراعي بطرس يصحبنا كابي الامين بلبل نرعى الغنم وفى المساء نعود بها و بعد العشاء كنت أذهب أولا في السني الاولى الى معلمي الراهب يوحنا اتلقى عليه أصول القراءة والكتابة وأمور الدين و بعد أن أتقنت هذه كلها كنت اختلي إلى مكتبة الدير أطالع الكتب فيها الى قرب نصف الليل محاولا فهم ما فيها وتطبيقه على ما كنت أشاهده أو أسمعه أو يجول بخاطري وكنت أكثر الحديث مع الرهبان ومع بطرس مستفهما عن كل شيء خصوصاً مع صديقي هذا الاخير حيث كان الوقت متسعاً لنا وأمامنا من الطبيعة كتاب لا نهاية له نأخذ عنه دروسنا ونروض الفكر على ما كان يبدو لنا من الاسرار. فحقاً يابني أن الطبيعة لهي أعظم أستاذ يعطي دروسه بسخا وعن ينبوع لاينضب لكل من يسترشد به ويأتي اليه يستنير بنبراسه فالدارس على الطبيعة الآخذ عنها حكمته وعلمه يكون حقيقة حكيماً عالما فينفتح أمامه كتاب الكون يقرأ فيه كما تقرأ أنت فى صحيفة الاخبار بشرط أن

يواجهها بأكملها ومن كل الوجوه وليس من جهة أو من بعض الجهات

ففي أحد الايام بينما كنت مع بطرس نرعى القطيع على حسب المعتاد وبلبل الكلب الامين يركض الى هنا والى هناك مراقبا حارسا لاحظت على بطرس آثار الم يكافحه ويريد ان يتغلب عليه ويخفيه عني فسألته مالك ياصاح فاني أرى على وجهك وفي حالتك مايدلني على انك تتألم فبماذا تشعر قل لي لعلي استطيع ان افيدك بشيء فشكرني وقال صحيح ما لاحظت فاني طول الليلة الماضية وانا على غير مايرام ولكني عند الصباح انست في بعض التحسن فقمت كالعادة ولكن الآن عاودني الالم بشدة لاتمكني من متابعة السير فهات يدك ولنجلس تحت هذه الشجرة القريبة ففعلت وبعد ان اجلسته ذهبت الى بعض الآبار واستقيت دلو ماء اتيته به فغسلت وجهه ويديه ورجليه فنام قليلا ولما استيقظ كان قد استراح بعض الراحة وهدأ الألم نوعا ما ولكنه لم يلبث ان عاوده حينئذ اشرت عليه بالرجوع بالغنم الى الدير فقبل ورجعنا وعند عودتنا اخبرت الرئيس والرهبان بالامر

فحضروا الى غرفته وسقيناه بعض العقاقير وعالجناه على قدر الامكان ولكن لم يصبح الصباح الا وكان صاحبي ومنقذي بطرس قد فارق الحياة فبكيناه جميعاً بدموع حارة وبعد الصلاة عليه واريناه التراب في مقبرة الديراما بلبل فان حزنه قد فاق حزننا جميعاً فانه عند مارافقنا الى المقبرة ورأى ماحل بفقيدنا انقطع عن الاكل وذهب عنا واختفى وبعد بضعة أيام وجدناه ميتا على قبر بطرس وهكذا فقدت رفيقي واصبحت وحيداً مرة اخرى عندئذ اشتد بي الحزن وصغرت في عيني الحياة ولم أعد اطيق القيام في الدير فاستأذنت الرئيس وودعت الرهبان والاسى ملء القلب واخذت هذه العصا وهذا الجراب وهما من مخلفات بطرس وسرت هائما على وجهي من تلك الساعة الى الآن حيث تراني معك . فتأثر الشاب من هذا الحديث ونظر الى الشيخ نظرة اشفاق كانه يشاركه في كل ماحل به من المصائب وود لو ساعدته الظروف ليكون معه دائما ملازماً كما كان هو فيما مضى مع بطرس . ولما كان الوقت قد مضى وقد تأخر عن ميعاد رجوعه الى منزله دعا الشيخ الى المبيت عنده كي يتابع الحديث فاعتذر

الشيخ عن قبول الدعوة بكل لطف ووعده باللقاء في الغد في المحل ذاته فتفارقا على أمل المقابلة في الغد يفكر كل في صاحبه كانهما يعرفان بعضهما من سنين حيث ان هذه البرهة الوجيزة التي قضياها سويا كانت كافية لتمكين عرى التعارف لا بل الصداقة بينهما ولاغرو فان هذا الامر يكثر حدوثه جداً بين الناس وحتى بين الحيوانات عند تجانس الدم والروح

— الفصل الثالث —

هل يوجد خير أو شر في الحقيقة ؟
أم ان ما نظنه خيراً لنا هو شر للغير والعكس بالعكس

في اليوم التالي في الوقت المعين اقبل صاحبنا الشاب نجيب وجلس على المقعد حسب المعتاد ولم تمض برهة قصيرة حتى حضر شيخنا وبعد تبادل التحيه والسلام قال له نجيب والله ياشيخي اني لم اذق مرارة الانتظار مثل الليلة فقد كانت كل دقيقة منها بيوم وكل ساعة بشهر فتبسم الشيخ وقال وهذا ما كان عندي أيضاً ولنعد الآن إلى الحديث

من سياق كلامي لك أمس يتضح أنني تركت الدير

وعمري اثنتان وعشرون سنة وقد بلغت الآن السبعين فثمان وأربعون سنة قضيتها كما تراني الآن متجولا من بلد الى بلد فزرت معظم الاقطار واختلطت بجميع الشعوب من هنود وصينيين وعجم وعرب وزنوج ورحلت أيضاً إلى أوروبا وشهدت ما يسمونه عظمة التمدن الحديث ومن هناك قيّض الله لي من استصحبني الى أمريكا حيث مكثت ثماني سنوات فبحثت ونقبت وراقبت فدهشت ولكن دهشتي لم تكن لامر جديد وقفت عليه ولو أن أشياء كثيرة يمكن عدها جديدة لاختلاف مظاهرها عند الناظر اليها سطحيا بل أن دهشتي هي لأني رأيت وتحققت بأن لاشيء جديد تحت الشمس أو بالاحرى لاشيء جديد في العالم أجمع فالطبيعة واحدة وسننها واحده تتمشى على أنظمة وخطط ثابتة واحدة والويل لمن عارضها فسبحان تلك القوة الخالقة المدبرة الفائقة فلا شيء يخلق نفسه ولا شيء يفنى بل أنه يخرج من الينبوع المعظم ويعود اليه ولو اختلفت طرق العودة بالتحول من شيء الى آخر حتى ظن بعضهم أن الفناء حاصل مع أن الحقيقة لا فناء بل تحول بل رجوع الى الاصل كما سترى فيما بعد

تتصارع الكائنات جميعها بعضها مع بعض سيان في ذلك الجماد والنبات والحيوان تحت تأثيرات شتى وعوامل مختلفة فتتبدل أشكالها وتتغير من حال الى حال مع توالي الزمن ومرور الايام ينظر المرء إلى هذا فاكان منه موافقاً له ولمصلحته وصحته ولراحته عده خيراً وما كان مخالفاً عده شراً مع أنه فى الحقيقة لايوجد غير أو شر إذا نظرنا للمجموع الكلى وللنتيجة القصوى وللسنن الطبيعية

سنة تنازع البقاء سنة طبيعية ولكنها في الانسان تدرجت معه حتى تولدت منها الانانية وعلى مصلحة الانانيه الفردية أو الشعبية أو العموميه الانسانية تكيف الخير والشر ومصائب قوم عند قوم فوائد واذا اردت يابني امثلة على هذا المبدأ أقول لك اني أنا مثل وانت مثل وماحصل وما يحصل لك مثل وكل انسان وكل حيوان مثل وكل ما في الطبيعة أمثال لذلك إذا حصرتها انحصرت واذا عممتها تعممت . تضيع أنت محفظة نقودك فهذا شر لك لأنك فقدت شيئا يمكنك به أن تزيد نعيمك ولذتك وراحتك أن رأسا أو بواسطة أن أدبياً أو ماديا روحيا أو جسميا

فيجدها غيرك فيكون شرك خيراً للغير . في حقلك بقرة تدر عليك لبنا وتفيد ارضك وزرعك وفي الجبل بالقرب منك اسد جائع يأتي فيفترس البقرة فيأكلها ويشبع اشباله فموت البقرة يعد في العرف الحالي شر عليها وعليك ولكن خير للاسد ولاشباله ولكن هل خسرت الطبيعة شيء كلا فبمجموعها توازنها باق . يحترق حي في مدينة فينقلب العمار الذي فيه الى حي آخر تخرب بقعة فيتحول ما كان يلزمها من الخيرات الى بقعة أخرى فيزداد خير هذه ببلاء تلك . تقوم حرب بين أمة وأخرى فتخسر هذه وتفوز تلك فشر الاولى خير للثانية ولكن يطغي البحر على ارض غير مأهولة فيغمرها وتزلزل الارض زلزالها فتغور جزائر وتظهر أخرى ولا تعد هذه الحوادث لا خيرا ولا شرا تنقض صاعقة فتميت شاة لامرأة عجوز فقيرة فيعد هذا الامر حادثا جللا وشرا مستطيرا ولكن تولد حيوانات شتى مفترسة وغير مفترسة وتعيش في الغابات البعيدة وتموت وتتقرض ولا يفطن لها احد فلا يعد وجودها او فناؤها لا خيرا ولا شرا . بالقرب من أحدى القرى يوجد

ذئب كاسر يسطو على ماشية الناس فيتعاونون على قتله ويعدون الفتك به خيرا عظيما ثم يجدون حيوانا نافعا مفيدا فيحسب وجوده نعمة . تنفجر عيون ماء غزيرة تجري منها انهار وتجف او تتحول من مجاريها الى مجاري أخرى ولا اهمية لهذا اذا كانت في بقاع لاناس فيها ولكن يرمي بعضهم حجرا في بئر ماء يرتادها الناس فيعد عمله شرا يستوجب العقاب . تنبت الاشجار والمزروعات في اراض غير مأهولة من الانسان وتزهر وتثمر فيأكل الطير والحيوان ثمرها ان كان هناك حيوان او طير او تتساقط على الارض بعد نضجها وتتحول الى تراب واسمدة ولا يعد هذا لا خيرا ولا شرا ولكن يكون في بستان يوسف شجرة تفاح يقطف منها زيد تفاحة فيعد عمله شرا وسرقة تستوجب القصاص . يربي الانسان الماشية ليأكلها وينتفع بلحمها وجلدها وعظمها وبكل ما ينتج عنها ويذهب الصياد الى الصيد فيقتنص الحيوانات والطير ويستعملها لما يتراءى له فيعد عمله خيرا عظيما ولكن اذا لسعت عقرب ولدا او لدغت نحلة انساناً او نقد طائر حبة حنطة من بعض حقول

الناس عد هذا العمل شرا . افليس هذا من الغرابة بمكان وهكذا مما لانهاية له . فمن هنا ترى يا بني ان الخير والشر ما هو الازرع ونبت الانانية الانسانية حسب وجهة نظر الانسان فيما يتراءى له من الفائدة أذ ما معنى تحول الماء من جهة الى جهة للماء نفسه او ظهور ارض وغور ارض للارض نفسها او سقوط ثمرة من الشجرة او قطفها او اكلها من انسان او حيوان للشجرة ذاتها او وجود حيوان مفترس أو داجن أو عدم وجودهما هنا أو هناك .

فاجابه نجيب وقال يستفتح من أقوالك وبيانك أنه لاخير ولا شر البتة ولكن كيف توفق هذا مع تعاليم جميع الاديان وقد اتفقت جميعها على وجود الخير والحث على عمله ووجود الشر والنهي عن فعله ؟ فقال الشيخ اسمع يا بني لما ترقى الانسان واسس جمعيته الانسانية فعاش قبائل فشعوبا فأمما ورأى ان عوامل كثيرة طبيعية تقاومه منها خارجية مثل الحيوانات المفترسة والسامة والقحل في الارض والصواعق والامطار والحر والبرد والثلوج والعواصف وخلافها ومنها داخلية مثل البغض والحسد وحب الانتقام

والكسل وحب الحصول على جنبي الغير وهلم جرا مما نشاهده في انفسنا ونعلمه من ذواتنا اراد أن يحتاط للامر ويعد العدة لمقاومة ذلك حفظا لتلك الجمعية وتقوية وأنماء لها فاقتبس من غريزته الطبيعية ومما شاهده في اجناس الحيوانات سننا وطرقا سار عليها ولما ترقى في عقله وزاد في توهمه وضعف جسمه لترهفه في المعيشة وكادت الغريزة الطبيعية فيه ان تضمحل ولم تعد وحدها كافية لوقايته كما في بقية الحيوانات استعاض عنها بروادع وزواجر خيالية تصورها للاستعانة بها على حفظه وحفظ روابطه لذا تراه في كل نواهيه ومسموحاته لم يقصد سوى مصلحته الخاصة او مصلحة الانسانية العامة ان رأسا او بواسطة غير ناظر الى خلافها البتة. بل أنه أذا نظر لغيره من الكائنات الاخرى فان ذلك يكون لتصور فائدة تعود اليه منها فعد نفسه السيد المطلق وكل الكائنات ملكا له لا بل عد نفسه الكل في الكل حرم القتل نفسه وفي جنسه واباحه في بقية الحيوانات . حرم السرقة في نفسه وفي جنسه واباحها في بقية الحيوانات والاشياء فلماذا اذا يقتل الحيوانات ليأكلها وينتفع بما ينتج

عنها ولماذا يحلب اللبن من الماشية فيسرقه من صغارها ويأخذ العسل من النحل فيسلبها قوتها . حرم الظلم والاستعباد ولكنه يظلم الحيوانات ويستعبدها فيحملها نفسه وامتعته ويستخدمها فى قضاء حاجاته حرم الزنا لانه بعد أن ضعفت او تلاشت فيه تقريباً الغريزة الرادعة التى تحتم على الحيوانات لحفظ كيانها عدم مجامعة انثاها الا في أوقات معينة وهو يطلب الجماع دائماً اضربه هذا الافراط ام لا لما أثاره فيه ترفه وتفننه وتأنقه فى مأكله ومشربه وجب عليه ذلك التحريم لردعه عما يضر به وبني جنسه وحفظا لما اختطه لجمعيته من العوائد والنظامات وما تولد عنها من الغيرة وحب الاستئثار وارضاء لما يدعيه من العدل لئلا يتحمل زيد مثلا تربية ولد هو من صلب عمرو ومما يدلنا ايضاً على أن هذه السنن ليست طبيعية وان هذه التحريمات هي من وضع الانسان اننا نرى ذلك الانسان ذاته في كثير من الاحيان يثور عليها رغم ما حصنها به من الوعد والوعيد فيقتل بعضه بعضاً ويسلب بعضه بعضا ويسبي حريم بعضه البعض ويخرب ويدمر بلاد بعضه البعض كما يشاهد في كل حرب وفي كل

حادثة من هذا القبيل . فمن هنا تستدل على ان الانانية الفردية والانانية القومية والانانية العنصرية والانانية الانسانية هي التي تحرم وتحلل حسب ما يتراءى لها من المصلحة والمنفعة . يقولون ان الخير والشر معرفتهما محصورة في الأنسان فقط مع ان مايفعله الانسان يفعله الحيوان ويساويهما فيه النبات والجماد فانظر الى الاسماك في الماء والى الحيوانات على الارض والى الطير في السماء تراها تقاتل بعضها البعض وتفتك بعضها ببعض وتأكل بعضها البعض وتتسابق على طعامها وتتسارقه كما يفعل الانسان وتقاتل الانسان وتفتك به كما يقاتلها وتقاتل بعضها وتفتك به وتفتك ببعضها وتسارقه متاعه كما يسرقها وتسرق بعضها . الا ترى يا بني ان الاسد اذا رأى انساناً أو كبشاً في البرية انقض على ذلك الانسان أو الكبش وقتله واكله كما يفعل ذلك الانسان بالسبع اذا قوي عليه فيصطاده وهذا هو الثعلب يسطو على الدجاج فيأخذ منها ما يطيب له وهذه هي الدجاج ايضا تنقض على الحشرات في الارض والديدان فتأكلها وتفعل بها كما يفعل الثعلب . ما الفرق يابني

بين سارق يهاجمك فيسرق مقتناك وبينك أنت تجد خلية نحل فتشتار عسلها وبين ذئب يهجم على طفلك أو شاتك فيأخذهما وبينك أنت تجد عش طير فتلتقط صغارها ما الفرق يا بني بين جار يسرق لك الفاكهة وبين الطير والحيوان تفعل فعل ذلك الجار. الا ترى ايضا ان ما فعله هذا الجار تفعله ايضا تلك الشجرة الغير المثمرة أو الحشائش البرية التي تنبت بين تلك الفاكهة فتظلل عليها وتأخذ من نمو ارضها فتقلل من حملها ولربما ايبستها. ما الفرق يا بني بين شعوب تثير على بعضها حروبا طاحنة تميت الولد وتخرب الديار وتذهب بالزرع والضرع وبين عاصفة تثور فتقتلع الاشجار وتجرف الامطار جميع مافوق اليابسة فتصبح البلاد قاعا صفصفا أو زلزال يحدث فتغور الارض بمن عليها من حي أو نبات أو جماد ويصبح عاليها أسفلها وتندثر جميع معالم ما كان كأنه لم يكن. وما الفرق أيضاً يا بني بين عصابة تدخل احدى القرى فتقتل وتسبي وتسرح وتمرح وبين وافدة من ميكروب فتال تدخل فى الاجساد وتفعل فعل تلك العصابة. افلا ترى ان جميع هذه الافعال ولو اختلفت شكلا وفاعلا هي

في الحقيقة واحدة تساوت في عملها الممالك الثلاث الحيوان والنبات والجماد. فهذه هي ايضا الحيوانات وفيها الحقد والبغض والغيرة والغضب كما في الانسان وتؤثر فيها العادة كما تؤثر فيه ففيها البري وفيها الداجن يخاف الذئب من الاسد كما يخاف الانسان ويحقد الجمل على من آذاه كما يحقد الانسان فمن هذا يتضح ان الخير والشر عاملان يتساوى فيهما وأمام فعلهما جميع ما في الكون فما هما الا مظهر من مظاهر التصارع السلبي والايجابي ولم يكيفا بالخير والشر الا حسب تعريف المصلحة الانسانية

في البدء ابتدأ التنازع بين الاحياء على القوت والسكنى فانخذل الضعيف وفاز الاقوى وبدأ الكفاح والعراك بينهما ومن هذا الكفاح تولد الحقد والغيرة والحسد وحب الثأر والاغتصاب وماشا كل لان الفائز أحب أن يحتفظ بما فاز به ويستزيد منه والمغلوب أراد المدافعة وأرجاع ما أخذ منه والتمثل بما فعل الغالب فتأصلت العداوة وأصبح القوي يحاذر من الضعيف والضعيف من القوي فان الدببة مثلا وهي تطلب السكنى في أحسن المغائر كان الانسان يطاردها

ويزاحمها عليها فيقاتلها وتقاتله إلى أن يخلو أحدهما الآخر عنها فأصبحت تنفر منه وهو ينفر منها وما يقال عن الدببة يقال عن بقية الحيوانات التي بينها وبين الانسان عداوة فانه زاحمها في الاصل إما على قوتها أو سكناها أو أنه ناصبها العداء طلباً لراحته لمضايقتها له في أمر ما أو أنه أراد الفتك بها ليقتات بها حتى تأصلت العداوة في الفريقين يتوارثها الاحفاد عن الاجداد فهي والحال هذه قد نبتت عن الانانية لان الانسان اذا كان قد عادى الذئب مثلا فانه انما عاداه ليس لانه ذئب بل لان الذئب سابقه على قوته أو أقلقه في راحته أو سارقه متاعه وهذه العداوة دائمة طالما الانسان يشعر بمقدرة الذئب على أذيته حتى اذا حل العجز وجاء دور المنفعة تحولت العداوة إلى الرأفة والمطاردة إلى التأمين كما يرى ذلك في حدائق الحيوانات حيث يحميها ويعولها ويسهر على راحتها وهكذا تتجلى الانانية الانسانيه في كل شيء كما أنها تتجلى أيضاً بأوضح أشكالها ومقاصدها في جميع ديانات الانسان ومعبوداته فانه لم يدن لشيء ولم يعبد شيئاً الا ماتصور منه القدرة على أذيته فعبده تملقاً ودفعاً لضرره أو ما تصور منه

النفع فدان له استدراراً لنعمه

فسأل نجيب الشيخ فقال لقدأقنعتني ياشيخ بهذاالبيان ولكني استوضحك عن هذا الامر . اليس للانسان وقد ترقى كثيراً وتدرجت معارف بعضهم إلى حد بعيد في كل العلوم والاختراعات والابتكار والتصور أن يجد طريقة بها يمكنه أن يكيف حاله على قاعدة أخرى اعدل من هذه تفيده ولا تضر بغيره أن من جنسه أو من الحيوانات الأخرى وتوافق مايدعيه من الرقي في العقل والعدل والمعرفة فلاينا قض نفسه بنفسه وقوله بعمله ويوجد له حياة أهدأ وأهنأ حيث أنه بالحق ليست لهذه الحياة مهما طالت قيمة ماتستلزمه من المشاق والآلام ان نفسية أو جسدية . فأجابه الشيخ وقال إن وقت الذهاب قد حان ويكفيك الآن ماقد سمعته فتأمل به فموعد الجواب على ماسألت غداً فالسلام عليك والى الملتقى

- الفصل الرابع -

(كل شيء في العالم مبني على قاعدة الأخذ والعطاء أو التبادل وهذا هو التوازن السلبي والايجابي)

تفارق صاحبانا وسار كل طريقه فسار الشيخ الى احدى القرى المجاورة للأهرام يستضيف الاجاويد وسار نجيب الى بيته مفكراً متأملا بما سمع واجتاز جسر قصر النيل ولم تكن تلك الضوضاء وحركة السيارات والعربات وجلبة الناس لتلهيه عما كان يتأمل فيه وتنبهه من سباته العميق لولا أنه أحس بيد امسكته بكتفه وهزته وسمع صوتا يناديه باسمه فالتفت الى ورائه فرأى أحد اصحابه يبتسم له محييا فرد التحية بأحسن منها فقال له صاحبه مالي أراك يانجيب دائما مفكراً لقد اضنيت جسمك العلك تريدان تغير نظام الكون ؟ دع عنك هذه الافكار وكن كبقية الاخوان فرحاً جزلا طروبا ، اني مدعو الليلة الى حفلة عند احد المعارف فتعال معي فسيغنينا احد كبار المغنين المشهورين على تخت مشهور أيضاً ، فهي ليلة أنس وطرب وسمع فهيا بنا وسوف تدعو لي بالخير وما

زال به حتى قبل وسار معه وكان هذا الصديق كاتباً أديباً حلو الحديث لطيف المعشر واسمه فريد فأخذ الاثنان يتعاديان في أمور شتى وقد نسي نجيب ما كان يفكر فيه فأخذ يضحك مع فريد مما كان هذا يلقيه على مسامعه من مستملح النكت وكان فريد في حالة سرور عظيم يطفح البشر على وجهه ويقهقه طويلا لكل نكتة يلقيها وقال لنجيب والله أني يا صاح لم أذكر أني يوماً من الايام قد ضحكت مثل اليوم فربنا يعطينا خير هذا الضحك

ولما كان في الوقت متسع أخذ الاثنان يتمشيان على هذه الحالة على ضفاف النيل وكانت المراكب من شراعية وبخارية متلألئة الانوار تخترق الماء ذهابا وإيابا وحواليها عدد كبير من الزوارق مكتظة بالناس طالبي النزهة تروح وتجيء بين عليها وكانت سطوح الذهبيات الراسية على شاطئ النهر غاصة أيضاً بسكانها وبزوارهم وكانت أنوار جميع هذه المراكب وأنوار الجسر والمنازل والفنادق القريبة مع أنوار تلك السماء الصافية تنعكس على مياه النهر العظيم الهادئة فتزيد المنظر بهجة تأخذ بمجامع القلوب فأثر هذا المنظر في صاحبينا جدا

فقال فريد لنجيب هلم يا أخي نجاري القوم في عملهم و ننتقل من الارض الى الماء فنأخذ نحن أيضاً ساعة زمن زورقا فلذّة العيش في التنقل حقاً أن هذه الليلة لهي من الليالي النادرة فوافق نجيب على هذه الفكرة بكل ارتياح وناديا بأحد الزوارق فجاءهما وركبا وجعلا يقذفان والرئيس محمد ماسك الدفة بيديه الاثنتين وكانا يتسابقان مع بقية الزوارق ضاحكين فرحين وفيما هما كذلك اذ سمع فريد ضحكا خيل له أنه يعرف الضاحك فامتقع لونه قليلا كأنه شعر بحلول العاصفة فقال لنجيب رويدك يا اخي اسمع أليست هذه ضحكة فريدة :

« وكانت فريدة هذه فتاة في مقتبل العمر بارعة الجمال أديبة متعلمة هام فريد في حبها من بضع سنوات حباً عذريا كاد يذهب بلبه لولا طبيعته الميالة الى اللهو والطرب وما كان يختلقه لنفسه من الاسباب ليموه عن فكره التفكير بمن كان يهوى »

هيا بنا نقترب من الزورق حيث الصوت لنتحقق من الامر فانصت نجيب قليلا فعلم أن الضحك هو ضحك فريدة ولعلمه بما سيكون لهذا المشهد من التأثير على فريد خصوصاً اذا كانت فريدة مع شخص آخر كما يدل الواقع بدا له أن يغالطه

ويحوله عن عزمه على اللحاق بها والاقتراب منها فقال له أظن أنك اخطأت التقدير لاني لا أرى أقل مشابهة بين الصوتين ثم ما الذي يأتي بفريدة الآن الى هنا في هذه الساعة ، واذا فرضنا المستحيل وكانت هي فانها انما تكون مع عائلتها أو أحد اخوتها واقترابنا منها ليس من اللياقة والادب بشيء فدع عنك الآن فريدة واترك التفكير بها ولنعد الى ما نحن فيه فما قلته من قبل لي بخصوص التفكير بالكون والطبيعة أقوله لك الآن بخصوص فريدة كما قال الشاعر

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

فلم يستمع فريد لهذا القول بل أخذ يقذف بسرعة طلباً للحاق بهذا الزورق وسايره نجيب في عمله لانه رأى أن الحالة مع صاحبه لا تجدي فيها المعاكسة نفعاً وبعد بضع دقائق كانا قد اقتربا جداً من الزورق فسارا بمحاذاته قليلا ولم يكد فريد يلقي نظره على من فيه حتى اصفر لونه وتثلج جسمه وارتخت مفاصله فسقط المقذاف من يده وارتمى على نجيب كأنه صعق من هول ما راى واخذ يتنهد وينتحب كالأطفال فحول نجيب سير زورقهما بأقل من لمح البصر

لئلا ينتبه احد اليهما واعطى المقاذيف الى الرئيس محمد وامره بالرجوع الى الشاطىء واخذ هو يعالج حالة صاحبه محاولا تعزيته على قدر الامكان وهكذا تحولت الحال من فرح عظيم الى كدر وحزن اليم فقد انقلب المعزى معزيا والمعزي معزاً ولما بلغا الشاطيء نقد نجيب صاحب الزورق اجرته واخذ بفريد الى منزله ولم يتركه طول تلك الليلة وفي الصباح لم يشأ نجيب ايضا ان يدع فريدا وحده فدعاه لمرافقته واخذ يقص عليه ماحضره من الاخبار والعبر محاولا تخفيف آلامه وتحويل افكاره عن صدمة الامس وكان من جملة الأخبار الحديث عن الشيخ فسري عن فريد بعض الشيء وطلب الى نجيب أن يذهبا سويا لمقابلته حسب المتفق

وعندما ازف الوقت جاء الاثنان الى الجزيرة فوجدا الشيخ قد سبقهما فسلما عليه وأستأذنه نجيب بتقديم صديقه اليه فقبل ولكن على ما بدا عليه كان قبوله عن غير ارتياح كلي ثم نظر اليهما مليا مستفحصا مستقرئا وقال موجها الكلام الي نجيب . مالي ارآك يا صاح وصاحبك وقد بدت على محيا كما آثار السهر والانهماك والحزن فهل حدث أمر

مكروه لاسمح الله حتى اثر عليكما هكذا فان حالتكما على ما تبين لي ليست بالعادية المألوفة فاخبره نجيب بكل ما حصل من حين ما فارقه بالامس الى ساعة ملاقاته الآن قاصا عليه جميع ذلك حرفا حرفا فتعجب الشيخ ولكن عجبه لم يكن لوقوع الامر بل لمصادفته الموضوع الذي سيكون حديث اليوم فقال لقد سألتني بالامس عن رأيي فيما لو كان يمكن للانسان بعد رقيه الحالي ان يجد لنفسه طريقة بها يتوصل الى أن يكيف حاله على شكل اعدل من حالته الراهنة تفيده ولا تضر بغيره من موجودات الطبيعة لتكون حياته اهدأ واهنأ منها الآن وقد شاءت الاقدار والصدف أن تساعدني على افهامك ذلك لتكون على اقتناع تام من نظريتي ففي حادثتكما بالامس الدليل القاطع والبرهان الساطع فاعلما أن كل شيء في العالم حيث انه جزء من الينبوع العظيم وقد تحول كل الى مظاهر و قوى مختلفة تحت ناموس التوازن انبنى على قاعدة التبادل اوالاخذ والعطاء لهذافانه ليستحيل على الانسان اذا كان يريد المحافظة على درجته فى الرقي وتدرجه فيها وعلى كيانه الحالي ان يتملص من هذه القاعدة

ولكنه يمكنه أن يلطف منهما بعض الشيء لذا فكل شيء يفعله المرء أو يشعر به له مقابل أو ثمن أو ضد فلا فرح بلا حزن وله سعادة بلا شقاء ولا تعب بلا راحة ولا لذة بلا مرارة ليبقى ناموس التوازن السلبي والايجابي دائما متسلطا اذ لو اختل ولو ذرة واحدة لانعدم كل شيء

لقد تركتني وأنت منقبض الصدر فلم تابث حتى لقيت فريداً فشرح صدرك فسررت مهنيهة ولما كان فرح فريد شديداً كذلك كان حزنه شديداً وكما كان لك معزيا هكذا كنت له أنت أيضا فقد قيل إن الجزاء من صنف العمل واعلم أن سرور تلك المرأة سيعقبه مرارة وكدر يوازيان شقاء فريد وما يقال عن فريدة يقال عن صاحبها فيوم لك ويوم عليك . يأكل الانسان الحيوان والنبات وهما في دورهما يتغذيان به ثم أن التراب الذي منه تغذوا يتغذى هو أيضاً منهم ويسمد بهم

يتلذذ الانسان بالمأكولات الشهية من لحوم وخلافها ولكن تلك اللذة تكلفه ثمنا غاليا يدفعه من تعبه ومن صحته ومن حياته . يتلذذ بالملاهي والشهوات ولكنه يضني جسمه

ويقصر عمره . تلبس الملابس لتقيك البرد والحر فتتنعم بها ولكنك في الحقيقة تدفع ثمن هذا النعيم من جني تعبك ومن اضناء جسمك لانك بسترك له تقلل نمو قوته ومناعته. تأكل الحلو فتتلذذ به وتأكل المر فتتمرر فلولا مرارة المر لما عرفت طعم الحلو ولولا التعب لما عرفت لذة الراحة ولقد قال الشاعر

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

لقد قلت لي أن الانسان ترقى كثيراً وأنا أجاريك وأقول رقي ولكن في الحقيقة ليس هذا سوى تحول أو تغيير مظاهر دون أقل افادة حقيقية أعني دون أن يزيد له شيء عن شيء تأنق في مأكله وملبسه وسكنه فعلى قدر ملذته هذه دفع لها ثمنا من قصر حياته ومضايقته لحريته ومن أمراضه وتعبه وشقائه . ترقى في نفسه وفي تصوره فعلى قدر الزيادة زاد في ضعف جسمه وفي آلامه الروحانية

يضربك زيد فيوجعك فتتألم في جسمك وفي نفسك لأن ما يتألم منه الجسم تشعر به النفس وما تتألم منه النفس يؤثر على الجسم وبعد ذلك يسكن الألم فتشعر بلذة ثم يجازى

زيد فترتاح نفسك وقد تكون مجازاة زيد أن رأسا أو بواسطة لانه على كل يجب أن يدفع ثمن عمله أما بعذابه الجسمي مضاعفا أو بعذابه الروحي مضاعفا اذا لم يشترك الجسم والروح في الثمن لسبب ما لأنه اذا تألم الجسم فقط يجب أن يكون على قدر التألم الجسمي والروحي وإذا تألمت الروح فقط يجب أيضاً أن تكون آلامها كآلام المعتدى عليه جسما وروحاً

يتفنّن الانسان بتحضير المأكولات اللذيذة فيتلذذ بها فتقوى به حاسة اللذة ويصير على قدر اللذة من اللذيذ يشعر بالكره من الكريه . لقد أصبح الانسان الآن يطير في الهواء وينتقل بسرعة من مكان الى مكان فعلى قدر فرحه بالسرعة صار يتأفف من البطء ولربما ما يعده الآن بطئاً كان يعده من قبل سرعه يفرح بها والامثلة على هذا هي في كل شيء لذا نرى أن النسبة مهما تغيرت المظاهر هي دائماً بين التبادل محفوظة وتراها أيضاً واضحة فيما سن له من اللوائح والشرائع وما استنبطه من القواعد قصد ذلك أو لم يقصد عرف هذه الحقيقة أو لم يعرف لانه لا يمكنه أن يخرج عن

الطبيعه فهو منها لابل هو مجتمع الممالك الثلاث وهيأة للعالمين المادي والروحي

لقد قال الكتاب أحبب قريبك كنفسك وافعل بغيرك ما تريد أن يفعله غيرك بك لأن الأنانية الانسانية تلزم الانسان أن لايرضى لنفسه الا كل خير وراحة فمن أحب قريبه كنفسه أراد له طبعاً مايريده لنفسه وعامله كما يعامل نفسه ولما كان التبادل بين الناس عظيما بالنسبة لجمعيتهم الانسانية ولحالتهم المعيشية ولاشتباك مصالحهم بعضهم مع بعض كتبت هذه الحكمة استناداً على هذه القاعدة تخفيفاً لآلامهم بعضهم من بعض وتقوية لجمعيتهم ضد الكائنات الأخرى لأنهم بما يدّخرون من القوى الايجابية فى ذواتهم بعدم أضاعتها فى تكالبهم مع بعض يقاومون سلبية تلك الكائنات الاخرى. هذا ماقيل فيما مضى وكان دينا وهو لايختلف كثيراً معنى عما يقال اليوم قانونا . أن حرية المرء يجب أن تنتهي حيث يبتديء واجبه نحو الغير فمن هنا يتضح أيضاً أنه لم يخرج عن هذه القاعدة لافي دينه ولامعاملته الاجتماعية الاتراه في صلاته لخالقه يعطي ليأخذ . يقرب القرابين لينال

الجزاء ينذر النذور ليحصل على ما يرجو يسبح ويمجد لينال المغفرة وهلم جرا مما هو ظاهر جلي في كل أعماله وأحواله وأفكاره أن روحياً أو جسديا فعلى هذا التوازن السلبي والايجابي انبنت سنة التبادل والاخذ والعطاء وهي أيضاً الاس الذي منه ظهر العدل وما العدل سوى التوازن فعلى قدر الأخذ يجب العطاء وعلى قدر الاذية يجب التعويض وعلى قدر التعب تجب الراحة واعلم ان ما قيل بهذا المبحث عن الأنسان يقال ايضاً عن الحيوان وينطبق على كل شيء آخر بمظاهر واشكال وطرق شتى لان قانون التوازن يسري على كل مافي الاكوان والعوالم

فقال نجيب ولكن اذا صحّ هذا ولا اراه الا صحيحا فبماذا تعلل اسباب الانحلال والانقلاب والتغير اذا كانت دائما نواميس التوازن محفوظة والتبادل بالقسط العادل حقيقياً فتبسم الشيخ وقال بورك فيك يا نجيب ان سؤالك هذا لم يفاجئني على غرّة بل كنت متوقعا اياه منك وسأجيبك عليه في الغد أن كان في العمر بقيه .

وكان الاثنان نجيب وفريد ينصتان بكل أنتباه الى

كل كلمة كان الشيخ يلقيها غير ان فريد وكان لم يعتد على ترويض فكره على مثل هذه المباحث قد استفزّه الفرح وأخذ يقبل نجيبا شاكراً له استصحابه معه وتقديمه الى الشيخ ثم قام الى الشيخ يصافحه مظهراً له أغتباطه بما سمع منه راجيا أن يسمح له بالعودة اليه ثانيا فأجابه الشيخ اذا كانت هذه المسائل مما ترتاح اليها وتعرف من نفسك القدرة على فهمها فعلى الرحب والسعة والآن فالى الملتقى بالغد

— الفصل الخامس —

(العوامل المساعدة على التكوين هي نفسها)
(المساعدة على التحويل في ظروف أخرى)

ذهب الشيخ فى حال سبيله كالمعتاد وقفل صاحبانا نجيب وفريد راجعين الى المدينة يتحادثان بما سمعاه ويضربان الامثال ويقيمان الشواهد ويطبقانها على الواقع وقد انفتح أمامهما باب واسع من هذا المبحث ولاغرو فحياة كل واحد منهما فى جميع مظاهرها ودقائقها وما عايناه وعانياه لهي مصداق لقول الشيخ

وفي اليوم التالي حضر الجميع في الميعاد وبعد التحية والسلام ومبادلة بعض الحديث قال نجيب للشيخ . عسى شيخنا أن يمن عليّ بما طلبت ايضاحه البارحة فاني قضيت ثلاثة ارباع الليلة قلقا افكر في هذا لعلي اجد له حلا ترتاح اليه نفسي ولكن فهمي عجز عن أرشادي الى ما يقنعني لما بدا لي من بعض المتناقضات فاجابه الشيخ لبيك يا صاح فها أنا مبد لك على سؤالك من البيان ما ارجو ان يبرهن لك على حقيقة الواقع ويقنعك كل الاقناع وهم باستطراد الكلام فقاطعه فريد قائلا عفوا يا شيخ اذا قطعت عليك الحديث بسرد واقعة لها علاقة بمسئلة الامس كما اني ارجو من صديقي نجيب ان لا يؤاخذني على هذا فالحادثة لها علاقة بفريدة وانتما تعلمان الآن ما كان لهذا الاسم علي

لما تركت نجيبا بالامس راجعا الى منزلي فظننت لحاجة كنت نسيتها عند بعض المعارف فقصدته لاخذها وبينما أنا سائر اذ ابصرت بفريدة مع الشاب الذي رأيتها معه بالزورق سائرين الهوينا يتهاديان في مشيتهما كما كنت انا أسير معها من قبل فشعرت أولا بانفعال شديد لم يلبث أن تحول الى

غضب وحقد ثم الى ازدراء واحتقار ثم الى عدم مبالاة كأن تلك العاطفة التي ثارت في أول أمس قد ماتت أو كأنها لم تكن البتة فاقتربت منها وحييتها بكل هدوء وسكون وعاودت المسير ولكنها لم تكد تسمع صوتي ويتقابل النظران حتى رأيتها وقد امتقع لونها وترنحت كالسكران ونفرت من صاحبها ونادت بسائق احدى العربات فصعدت اليها ولم تسمح لصاحبها بالاقتراب منها ووضعت وجهها بين كفيها واخذت تبكي وسارت العربة بها فبهت صاحبها من هذا المنظر كمن لم يعلم له سببا. اما أنا فقد وقفت بعيدا اراقب ما جرى دون ان أشعر بتأثير يذكر كأن فريدة لم تكن لديّ سوى أية امرأة أو اي انسان آخر وتابعت المسير كان لم يكن شيء مما كان وها أنا الان اسرد عليكما هذه الحادثه وكأنها ليست لي مع فريده بل كأنها قصة قرأتها في بعض الكتب أو سمعتها من بعض الرواة وقلت لقد صدق شيخنا فيما قال لقد دفعت فريدة ثمن سرورها مرارة وبكاء وكما كانت حالتي عند مارأيتها في الزورق هكذا حالتها كانت في العربة ففكر الشيخ هنيهة محدقا بفريد ثم تبسم كعادته

وقال لقد صدقت في استنتاجك هذا ولكن لهذه الحادثه عندي الان استنتاجان لا بل لهي برهانان ساطعان على ما قلته لكما بالامس وعلى ما سأقوله الآن فكأن الصدف قد ارادت ثانية ان تساعدني على اقناعكما بما تطلبان من الايضاحات . لقد سألتني بالامس يانجيب بما تعلل اسباب الانقلاب والانحلال والتغيير اذا كانت دائما نواميس التوازن محفوظة والتبادل بالقسط العادل حقيقياً فاجيب بان القوى والعوامل المكنونة أو المساعده على التكوين هي نفسها المحلة او المساعدة على التحويل وذلك باختلاف الظروف وذلك في حادثة صديقك فريد بالامس برهان جلي على ذلك : احب فريد فريدة حباً تزايد لاسباب شتى وفي ظروف مختلفة لم تصادمه حين نموه موانع التغلب الكافي ولم يكن حب فريدة له شديداً كحبه لها فكانت قوتها السلبية والحالة هذه متغلبة على قوته الايجابية ولم يزل حتى تكامل اول امس حينما شاهد فريدة في الزورق ولكن عندما رأيت يافريد بالامس مارأيت طفح الكيل وانقلبت الآية واصبح ماكان يزكي قبلا فيك نار الحب يطفئها الان وقد قيل

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان

ان العناصر الاربعة الثانوية المكونة المتولدة عن العنصر الاصيل الفرد هي نفسها المحولة اذا تحولت كفة الميزان في احداها فالهواء والماء والنار والتراب التي تنبت النبات وتحيي موات الشجر فيورق ويعطي ثمرة وتقوي الاجسام وتنعش القلوب وتفرح الصدور في الربيع هي نفسها التي تيبس النبات وتسقط الورق وتضعف الاجسام وتقبض الصدور وكما ان الغذاء يغذي الانسان والحيوان وينميه كذلك هو الغذاء الذي يفنيه ويميته والهواء والحرارة اللذان يبخران الماء ويصعدانه في الجو ضبابا هما ذاتهما اللذان يرميان به على الارض والتراب الذي بواسطته تتكون الاجسام وتتغذى هو الذي بواسطته تنحل وتتحول انظرا الى هذه المدينة وما فيها من المباني الحديثة الجميلة المزخرفه وقارناها بتلك المباني القديمة الآيلة الى السقوط ترى أن القوى والعناصر التي ساعدت على تشييد وتكوين الجديد هي نفسها التي ساعدت على سقوط وتخريب واضمحلال هذا القديم وقد كانت القديمة في حينها

جديدة جميلة وسوف تتحول جديدتنا الآن في حينها أيضاً الى قديمة مخربة وهكذا الى أن تندثر تماماً معالم الجميع . أنظرا الى السماء فوقكما ومافيها من الغيوم المختلفة الاشكال وعايناها بعد ذلك وقد صفا أديمها ولم يبق لتلك من أثر ظاهر وانظرا الى ماحواليكما من البقاع والسهول والجبال تريا أن القوى التي أعطتها شكلها الحاضر هي نفسها الكفيلة بتغييرها إلى شكل آخر أنظرا الى هذه الرياض والجنائن المخضرة المثمرة وكيف كان حالها بالأمس وكيف يكون حالها غدا انبتها التراب وسقاها الغيث وأنمتها حرارة الشمس وأزهاها النسيم ولونها النور بالوان تبهر الابصار بجمالها وسوف تحرقها الشمس فتيبس ويذريها الريح ويفسدها الماء ويسلبها النور ما أعطاها من زاهي الالوان ويحولها التراب اليه ويمحي منها الأثر والعين . بل أنظرا الى نفسكما وما طرأ عليكما حتى الآن من الانقلابات والتحولات من الطفولية الى سن الشباب . من صحة ومرض وسمن وذبول وما سيطرأ ايضاً في السنين المقبلة أن نفسياً أو جسدياً تريا أن العوامل هي نفسها واحدة في كل الحالات فقط تغلب عامل على عامل

فصل التغيير والانقلاب فقال نجيب ليسمح لي شيخنا أن القي سؤالا استوضحه به بعض ما ابهم علي وعلى صديقي فهمه . فقد قلت لنا ياشيخ بمناسبة حادثة فريدة وفريد ان الانقلاب حدث بقوة التحويل السلبي والايجابي وهي حادثة نفيسة روحية واستطردت الكلام الى العناصر الاربع وتكلمت عن التحويل فيها مستندا كما ظهر لنا على المبدأ الاول مع ان الكلام عنها هو عن الماديات المحضه فما دخل الروح في المادة ثم عدت فقلت أن ما طرأ وما سيطرأ علينا من التحولات ان نفسيا أو جسديا هو ناتج عن نفس العوامل دون أن تميّز بين العوامل المؤثرة على النفس والمؤثرة على المادة أو الجسد مع ان لا شبه بين المادة والروح فتنبه الشيخ كمن فطن الى شيء وتبسم وأجاب نعم لقد صدقت في ملاحظتك يا صاح لأنه كان يجب علي زيادة الايضاح في حديثي ولكنك لو ذكرت كلمتي عند استطراد الكلام حيث قلت ان العناصر الاربعة الثانوية المكونة المتولدة عن العنصر الاصيل الفرد لعلمت ان هناك صلة اصليه بين المادة والروح وعليه أقول لكما ان المادة نفسها التي

يدعونها مادة لوقوعها تحت الحواس بسبب التقلبات والتحولات هي من العنصر الاصيل الفرد المتولدة منه الروح ايضا ففي الجماد والنبات مظهران من العنصر الاصيل الفرد اما في الاحياء فثلاثة المظاهر كما سأبيّن ذلك لكما فيما بعد لذا فان ما تتأثر منه الروح يشعر به الجسم وما يتأثر منه الجسم يعمّ تأثيره الروح فقال فريد والله يا شيخ ان هذا البحث لهو مما يعجز عنه فهمي الآن ولعلّ ماوعدت به من البيان في المستقبل يزيل عن عيني بعض الغشاوة ولقد قال شيخنا فيما قال بمناسبة حادثتي مع فريدة وكيف أن حبي لها تحول الى بغض وحقد واحتقار تلاه عدم مبالاة واهتمام مما فهمت منه حسب قولك ان قوتها السلبية كانت في الاول متغلبة على قوتي الايجابية ثم بفعل الحوادث والظروف وماشاكل انقلبت الآية واصبحت انا المتغلب ثم ان صديقي سأل عن حقيقة التوازن السلبي والايجابي فاجبته بما يؤكد حقيقة التوازن ثم قلت حفظك الله ان التحول يجري اذا تحولت كفة الميزان من جهة لاخرى فبناء على ماتقدم فلا بد للتحول من تغلب السلبي على الايجابي أو الايجابي على السلبي فاذا

تغلب عامل على عامل كان ثم طبعاً زيادة في هذا ونقص في ذاك فاين التوازن مع هذا فنظر الشيخ الى فريد مليًا متأملا ثم بدت على وجهه علامات البشر وقال يسرني جداً منك يافريد أن اسمع منك مثل هذه الاسئلة مما يدلني على تتبعك للحديث بكل اهتمام وتبصر واستيعاب لذا أقول لكما ولو خالف ظاهر قولي المعقول أنه رغم تغلب عامل على عامل ورغم النقص في هذا والزيادة في ذاك ورجحان كفة هذا على ذاك يبقى التوازن بين السلبي والايجابي محفوظا متساويا كما سأشرح لكما هذا غدا وتريان مما تقدم ان التحول والانقلاب هو سنة طبيعية تشمل جميع اجزاء الكون سيان في ذلك الارض والنجوم والممالك الثلاث وهي ظاهرة ايضاً في الانسان باجلى مظاهرها ان كان بجسمه أو بروحه باعماله أو افكاره لذا فهو لايطيب له العيش الا بالتحول والانتقال والتغير على قدر مابه من الحياة ولله در من قال .

يطلب الانسان في الصيف الشتا فاذا جاء الشتا انكره
ليس يرضي المرء شيء واحد قاتل الانسان ما أكفره

والان فاني استودعكما المولى وهو نعم الوكيل فالى الملتقى

ياصاحبيّ . قال هذا وهم بالابتعاد فقام اليه نجيب ووضع في يده بعض الشيء ثم حياهما وشكر وسار

— الفصل السادس —

(تأثير الكائنات بعضها على بعض وتأثير الممالك الثلاث)
(باجزائها بعضها على بعض)

بقي نجيب وفريد جالسين على مقعدهما بعد ذهاب الشيخ لأن الوقت كان مبسماً أمامهما فالغد كان أحداً وهو يوم عطلة وليس عندهما من الاعمال مايدعوهما الى الاسراع فقال فريد لنجيب أن شيخك ياصاح لهو نابغة حقيقة فقد استصغرت نفسي أمامه الى حد العدم مع أني ولا أخفي عليك ما شاهدته لأول مرة لم اسمع بقوش فصحيح أن من يحكم على الظواهر يخطيء ولكن مما يصعب على فهمه أن هذا الرجل رغم معارفه الواسعة ورأسه المفكرة المملوءة بالحكمة يبقى هكذا هائما على وجهه ينام في العراء متوسدا الغبراء وملتحفاً السماء ليس له مكان يأوي اليه يتنقل باطماره البالية من بلد الى بلد يستجدي اكف المحسنين مع أنه وأني

واثق من هذا باستطاعته بعمل واحد أن يشهر ذاته فيلفت اليه الانظار فينال مكانا رفيعاً ويعيش سعيداً متنعما فيفيد نفسه وينفع الغير فاجابه نجيب وقال لربما كنت محقا في ملاحظتك ولكن لاتتسرع يا أخي فامل له عذراً أو غاية مخصوصة يقصدها بحياته هذه ونحن نجهلها بل لربما كانت السعادة لديه حسب وجهة نظره هي في معيشته على هذا النمط لان السعادة ان كانت هنالك سعادة تختلف باختلاف وجهة نظر كل واحد فمنهم من يراها في جمع المال ومنهم من يراها في المناصب ومنهم من يراها في الحب ومنهم من يطلبها من وراء الشهرة ومنهم من يراها في خدمة الناس ومنهم من يراها في السكون والانفراد ومنهم من يراها في طلب العلم والتوسع فيه ومنهم من يراها في التمتع بالملذات ومنهم كثير كل واحد على حسب ما يتراءى له ولكنني انا يافريد أرى أن لاسعادة البتة في الحياة لان الحياة كفاح دائم مستمر طالما أن سنة التبادل والتوازن طبيعية وسنة التحول والانقلاب طبيعية أيضاً كما بين لنا الشيخ وكما يثبت ذلك لنا الواقع وعلى كل فما لنا ولخصوصياته فأن له من عقله ما يرشده

الى ما يراه اوفق له ولنعد الآن الى التفكير فيما قاله انا فهذا اولى وانفع ولنغتنم هذه الفرصة لندرس عليه ونأخذ عنه ما أمكن فقال فريد لقد صدقت يا أخي وسأمضي يوم غد في التفكير لعلي اصل الى تفهم ما قال او على الاقل الى ترويض عقلي على تفهمه فاجابه نجيب وقال : اسمع يا فريد أريد أن أشير عليك بامر لعلك توافقني عليه .لقد صرحت لنا علنا ولست أشك بصدقك لما اعلمه عنك وأعرفه فيك من الصراحة والصدق بأن عاطفة حبك لفريدة قد تلاشت وأعلم أيضاً أن عرى الصداقة متوطدة بينك وبين أفراد عائلتها فاذهب غدا وزرهم في منزلهم وحادث فريدة كالمعتاد كأن لم يكن شيء مما كان وسهل السبل لمقابلتنا بها ولا تسلني الآن عن السبب فأن لي بحثا أريد أن اجريه فبهت فريد لهذا الطلب وعرته الدهشة وبقي هنيهة حائرا صامتا ولكنه لعلمه ببعد نظر نجيب وأن لابد ان يكون له ثمة غاية معينة يقصدها وحقيقة يريد أن يستجليها لصالح الفريقين قبل ذلك رغم ما كان يخشاه من سوء تأثير هذه المقابلة بعد كل ما حصل

رجع الاثنان الى منزلهما صامتين لا ينبسان ببنت شفة ولما اقترب نجيب من منزله صافح فريدا على أمل المقابلة في الغد وتركه ولما بقي فريد وحده خطر بباله خاطر فنظر الى ساعته فوجد أن لم يزل في الوقت متسع فسار يسرع الخطى الى منزل فريدة لأن اليوم كان يوم استقبال أهلها وحضوره في مثل هذا اليوم يكون عاديا مألوفا فلهذا ولدافع خفي أيضاً يجهله سار من ساعته لزيارتهم

دخل فريد وحي فقوبل بكل حفاوة واكرام من آل البيت وممن حضر عندهم من الزائرين وبعد تبادل عبارات المجاملة مما تطلبه المقام سأل أخو فريدة فريدا عن سبب تغيبه في هذه الايام عن القهوة حيث كان يجمع الخلان عادة وقبل أن يجيبه على هذا السؤال دخلت فريدة وكانت شاحبة اللون يدل منظرها على ألم خفي وتأثير نفسي كانت تعلله أمام الحضور بألم في معدتها ولما رأت فريدا ازداد أصفرارها ولكنها تجلدت وتقدمت اليه وحيته كالمعتاد دون أن ينتبه أحد لما بدا عليها غيره فدعاها الى الجلوس بالقرب منه ومن أخيها ولما جلست أجاب فريد وقال تسألني

عن سبب تغيبي عن القهوة هذه الايام فما قولك اذا قلت بأني كنت مشغولا بدرس الفلسفة فتبسم اخو فريدة وقال ولا شك على صديقك نجيب فأجاب فريد وقال ليس عليه ولكن معه على شيخ غريب عجيب فقال أحد الموجودين وكان يبغض نجيبا ولا يترك فرصة تمر دون الحط من كرامته والسب فيه حسدا وخساسة وقد تجرأ بتبسم أخي فريدة عند ذكر الفلسفة فقال شيخ غريب عجيب أستاذ صديقك نجيب فطبعا يجب أن يكون مثله فالطيور على أشكالها تقع ولكن ما لا أفهمه هو كيف أنك وأنت الكاتب الذكي القدير ترضى بمعاشرة نجيب الغريب الاطوار النصف مجنون وأراد أن يتابع القول ولكن فريدا غضب لهذا وشاركته في غضبه فريدة لا بل زادت عليه لانها كانت أدرى بحقيقة نجيب من غيرها كما اشمأز من هذا التطاول أكثر الحاضرين منهم لمعرفتهم لنجيب ومنهم للتطاول نفسه وللقدح في الناس فنال الرجل نصيبه من المقت واللوم مما أضطره الى الخروج وعاد فريد الى الكلام فأخبرهم عن معرفته بالشيخ وعن بعض ما قاله وشرحه فتعجب بعضهم

ممن فهم القول كما أن البعض الآخر لم يعر ذلك اهتماما وكانت فريدة اكثر الحاضرين تعجبا فقالت يا حبذا لو تمكنت من التعرف بهذا الرجل قالت هذا مدفوعة بجملة عوامل منها لكونها اديبة متعلمة ذكية وكانت تتوق لمثل هذه المباحث ومنها لكونها امرأة تحب الاستطلاع بطبيعة الحال ومنها أنها كانت تريد أن توجد مع فريد للتكلم عن الحادثة فأجابها فريد اني غدا قرب المغرب على ميعاد في الجزيرة مع نجيب ومعه فاذا شئت وشاء الاخ حضرت أنا ونجيب الى هنا قبل الوعد فنذهب سويا أو أن نتقابل عند آخر الجسر عند مدخل الجنينة فقال الاخ أذا احببت يافريد فاحضر غدا مع نجيب الى هنا فنشرب القهوة ثم نرى رأينا وعلى هذا تمَّ الاتفاق فاستأذن فريد في الذهاب وودع الحاضرين وخرج

في اليوم الثاني تقابل فريد مع نجيب فأخبره بكل ما حصل واتفق معه على الذهاب سوية الى منزل فريدة بعد الظهر وأخبره ايضاً بتطاول ذلك الرجل وما ناله من الحاضرين فتبسم نجيب وقال عجيب فهذه مرة أخرى

يصدق معي الحديث «اتق شر من أحسنت اليه» أعلم يا فريد أن هذا المتطاول مدين لي بحالة اليسر التي هو فيها فلولاي كان على الحضيض ولكن لا بأس فالله لا يضيع اجر من أحسن عملا

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال فريد لقد صدقت ومثل هذا قد صادفني أيضاً مرارا ولكنني لا أدري كيف اعامله وسأسأل الشيخ هذا المساء عله يفيدنا بشيء عنه فقال نجيب سأكفيك مؤنة الانتظار حتى المساء وسأكفي الشيخ مؤنة الرد فأني افيدك عما طلبت ولعلي مقنعك وأنت حر بأن تقبل أم لا وعلى كل فأن هذا الحديث يساعدنا على تمضية الوقت لحين موعد الغداء : أن من طبع الانسان العنفوان وحب السيادة والعظمة سيان في هذا الغني والفقير الكبير والصغير العظيم والحقير وهو لا يأتيك لطلب حاجة الا مرغما لاحتياجه اليك أو مدفوعا بعامل آخر فأذا ألتته اياها شعر بأنه مدين لك وهذا يؤلم عنفوانه ويحط من سيادته وعظمته في عينيه

ولربما شعر بأهانة عزة نفسه امام الآخرين : فيزين له الوهم أن يثلم من قدرك او يسعى ليؤذيك بمالك وبمركزك حتى يظهر بمظهر أهم منك فينتقم لعنفوانه ولعزة نفسه منك لجهله وما أكثر الجهال أما أذا كان ممن تثقف عقلهم حقيقة وما اقل هؤلاء عرف لك الجميل وشكر لهذا واعتمادا على الاكثرية يجب الحذر من انتقام المحسن اليه ويوجد ايضاً اناس بينما يعرفون لك جميلك ويحفظونه تراهم ينغطون احسان شخص آخر والعكس بالعكس وهذا اعاله بتجانس بين الارواح او بتنافرها فالمتعارفة تزداد بمثل هذا تقربا والمتباعدة تباعدا ففكر فريد هنيهة ثم قال لربما كنت مصيبا يا نجيب واخذ الاثنان يسردان على بعضهما ما حصل لهما وما سمعا به من مثل هذه الحوادث ويطبقانه على احدى النظريتين الى ان حان وقت الغداء فافترقا على موعد اللقاء امام منزل آل فريدة

التقى صاحبانا في الموعد المحدد أمام منزل فريدة فصعدا سوية اليه وبعد شرب القهوة خرجا وخرجت فريدة واخوها وسار الجميع نحو قصر النيل قاصدين الجزيرة فدخلوا احدى

القهوات وبعد أن شربوا بعض المرطبات وهم يتجاذبون أطراف الحديث طلب سليم أخو فريدة وكان لا يهمه من الحياة سوى اللهو والطرب ولعب الميسر أن يعفى من مرافقتهم الى مقابلة الشيخ لانه يرغب في الذهاب الى رهان صيد الحمام فاجابه فريد خيراً تفعل ياسليم لاني على يقين من أن منظر الشيخ في نظرك لا يوازي منظر الحمام ولا حديثه يسليك كحديث من ستكون معهم هناك من الأصحاب ولكن حيث أنه لم يزل عندنا وقت فسنرافقك الى هناك ثم نعود مشياً الى مقعدنا اذا سمحت بذلك فريدة فوافق الجميع على هذا ونادوا باحدى العربات فركبوا ولما وصلوا الى محل صيد الحمام تفارقوا على أمل المقابلة مساء ودخل سليم محل الصيد ونجيب وفريد وفريدة ساروا الى مقابلة الشيخ يفكر كل منهم بماذا يفتتح الحديث ولكنهم لم يبتعدوا بضعة أستار حتى شعر نجيب بقشعريرة هزت جسمه فنظر حواليه يبحث عن السبب فتنبهت فريدة لهذا وسألته عما به فقال لا أعلم لقد شعرت بقشعريرة هزت جميع جسمي من اخمص قدمي الى قمة رأسي كما لو كنت بالقرب من وحش كاسر أو حية أو قاطع

طريق في مكان منفرد لهذا فاني أنظر يميناً وشمالا لعلي أرى الموجب لهذا التأثير الخفي الذي به شعرت إذ أن شعوري كما لاحظت دائما لم يخني البتة فاجابه فريد وقال دع عنا ياأخي مثل هذه الأوهام ولا تزعج فريدة ففطن نجيب لملاحظته ولكنه عاود الكلام وقال نعم أنك مصيب في قولك ولكن ألا ترى فريدة أننا نحن الاثنان هنا فما تخاف لذا أقول لك وأكرر القول بانه لابد ان يكون بالقرب من هنا ثعبان أو ذئب أو أي شيء مثل هذا فقفا انتباهنا فاني مقترب من هذا الهشيم لأتحقق الأمر قال هذا وتقدم من شاطىء النيل بكل احتراس ولما دنا منه رأى بضعة عصافير ترفرف باجنحتها تريد الهرب والطيران ولكنها لاتستطيع الارتفاع كان هناك قوة تجذبها اليها ورأى على الأرض ثعبانا رافعاً رأسه محدقا بها النظر يتقدم منها رويداً رويداً لافتراسها فتراجع نجيب قليلا وأومأ الى فريد بالتقدم وحده بكل تروٍ وهدوء فجاء وجاءت وراءه فريدة ولم يكد يقع نظرهما على هذا المشهد حتى ذعرا وهما بالتقهقر فهدأ روعهما وقال مهلا فان لنا بهذا المنظر درساً مفيداً جدا فانصتا ولا تأتيا باقل

حركة لأني أريد المراقبة الى النهاية فقالت فريدة مسكينة هذه العصافير فان هذه الحية ستلتهمها فاجاب نجيب لاتخافي عليها فاني قد احتطت للأمر وسأضربها بهذه الحجارة فتنفر وتخلص العصافير ولم تزل الحية تدنو والعصافير تقلل من صياحها وحركتها كأن الخوف قد هد منها كل حيل حتى كادت تقع فريسة عندئذ تناول نجيب الاحجار وأخذ يرشق الحية وفعل فريد وفريدة فعله فنفرت وهربت وتطايرت العصافير وتراجع أصحابنا بكل سرعة الى الطريق

سار أصحابنا بضع خطوات دون كلام منذهلين مما رأوه ولكنهم لم يطل صمتهم كثيراً حتى قطعه نجيب بقوله لها كيف رأيتما ؟ ألم أكن محقاً في زعمي ؟ لقد قلت لكما ذلك ولكن الصديق فريد لم يرد أن يصدق فها قد حقق الواقع مابه شعرت فأجابت فريدة لقد كنت الآن أفكر بهذا وأقيسه ببعض حوادث جرت أيضاً لي وقد ذكرتني هذه الحادثة بجملة حوادث حصلت لي مع أناس كنت عند ما أراهم أشعر بانزعاج أو بعدم ارتياح لحضرهم وكان يتحقق دائما انزعاجي بما كان يجري منهم لي أو بما كان يصدر عنهم مما

كنت أراه أو اسمعه عنهم لذا اصبحت تراني يانجيب أعير أهميه كبرى لأول تأثير عند مقابلتي لأي كان فما هو السر ياترى في هذا لعل الشيخ الذي أطنبتما في مدحه يفيدنا عن هذا فأجاب فريد وقال أني لا أشك في ذلك ولكن ارى ان المسائل تراكمت اليوم لدرجة ربما أنستنا ما طلبناه من ايضاح مسائل الأمس فقال نجيب لاتخف فاننا وان نحن نسينا فهو سيذكرنا به ويفيدنا عنه ولاسيما أني أعتقد بان جميع ماحصل اليوم لهو مترابط متماسك مع ماقاله الامس وما سيقوله اليوم قالت فريدة أني كلما سمعتكما تذكران هذا الرجل يزداد اهتمامي بمعرفته وشوقي لرؤياه واستماع كلامه فلعله لايتأخر كثيراً عن الحضور فهاقد قاربنا الوصول لابل علنا نراه وقد سبقنا فيكفينا مؤنة الانتظار لأنه مما يشغل الآن فكري كثيراً هو كيف أن هذه العصافير وهي بنات الجو لم تقدر على الهرب من هذه الحية رغم ما كانت تبديه من العزم عليه بل بقيت محاولتها عبثاً كانها ربطت في مكانها مكهربة من نظر الحية فما سر هذه القوة التي أوقفتها في مكانها رغم خطر الموت فحالتها والحالة هذه كانت تشبه بعض

الشبه حالتي مع هذا الرجل الذي رآني فريدمعه في الشارع فكان سلام فريد كالحجر الذي نفر الحية وأطار العصافير

فدهش فريد عندسماعه هذا وليث صامتا حائراً الايدري اهل يصدق فريدة وما قالت أم هل يعد هـذا القول ادعاء منها ذراً للرماد في العيون اما نجيب فلم يكن اقل دهشة من فريد الا انه لم يخامره اقل شك فيما قالت ففكر قليلا ثم تبسم تبسم الفوز لادراكه ما كان يبغيه وقال لفريدة لقد أخبرني فريد بهذا الأمر فاستغربته جداً وفكرت به طويلا لذا اشرت عليه امس بالذهاب اليكم سعياً وراء هذه المقابلة لاستوضحك السبب وكنت من ساعة وجودنا عندكم الى الآن افكر بطريقة افتتح بها هـذا الحديث دون ان آلم شعورك اما الآن وقد قلت ماقلت فلا حاجة لزيادة الايضاح وما مثلك مع الرجل وفريد ومثل العصافير مع الحية ومعنا الا كمثل ما نشاهـده في الجيوش في الحروب تساق اليها مرغمة بقوة معنوية اكثر منها مادية تضطرها لملاقاة حتفها وهي تنظر اليه ولا يمكنها الهرب منه قال هـذا ونظر إلى الامام فرأى الشيخ قادماً من الجهة المقابلة فقال وها هو الشيخ

قد حضر وهو سيوضح لنا هذه المعميات فلنسرع الآن لعلنا نصل قبله فسار الثلاثة مسرعين وبعد قليل كان الجميع معا قرب المقعد المعلوم

بعد مبادلة السلام قال نجيب لا تستغرب ياشيخنا وجود هذه الآنسة معنا فهي فريدة فريد وهي على ما اعرفها من البنات ذوات القلب والنفس والفكر لذا عسر عليّ فهم بعض ماحصل لها معه فاوفدته اليها توطئة لمقابلتها لعلي اقف منها على بعض السبب والحمد لله فقد تسهل الامر وسمعت بذكر الشيخ فطلبت التعرف به وسماع حديثه والدرس عليه ثم قص عليه جميع ماجرى وماقيل ففكر الشيخ مليا ثم نظر الى فريدة وقال يسرني جدا ان اراك هنا وقد تركت ما يروق عادة لبنات جنسك وجئت الينا مدفوعة بحب العلم طلباً للمعرفة والحكمة لهذا فاني ارحب بك ترحيباً مزدوجا ثم مد اليها يده وصافحها

جلس الجميع ولزموا الصمت هنيهة كأن على رؤسهم الطير حتى افتتح الشيخ الحديث وقال ان من ينعم النظر في هذا الكون يرى أن جميع الكائنات تتأثر بعضها من

بعض بلا استثناء من ذلك أي جنس من الاجناس أو أي صنف من الاصناف أو أي مملكة من الممالك الثلاث أو أي عنصر من العناصر الا أن التأثير يختلف بأختلاف القوى

لقد سألني فريد بالأمس كيف يتغلب السلبي على الايجابي أو الايجابي على السلبي مع بقاء التوازن محفوظا سؤال وجيه ولكن لو كان هذان العاملان موجودين في القوتين المتنازعتين فقط ومحصورين فيهما دون غيرهما وتغلب عامل على آخر صح القول بأن الزيادة في أحدهما والنقصان في الآخر يخل في حفظ التوازن ولكن حيث أن هذا التغلب لا يتعدى وحدة او وحدات من مجموع الكائنات بينما العكس يجري على غيرها أيضا ان سلباً أو ايجاباً أو ايجاباً أو سلباً يبقى التوازن دائماً محفوظاً لقد قلت لكما والآن أقول لكم حيث أن أصل جميع الكائنات واحد كما سيأتي بيانه فيما بعد وكانت كل وحدة من الكائنات وكل جزء منها مهما كان صغيراً وكل مظهر من مظاهرها هو قوة قائمة بذاتها تسير على نظام واحد ثابت تضم اليها أو تنضم الى غيرها حسب ما بها من قوة نسبية أمام المنضمة اليه أو المضموم اليها فعلى قدر

القوى المتنازعة يكون التأثير والتحول كما أنه على قدر التجانس يكون الانضمام أو الانفصال

رأى فريد فريدة فجذب أحدهما الآخر اليه وبما أنه وجد بينهما تجانس والتجانس يختلف كثرة وقلة وهو اما أن يكون تجانس المادة كالدم أو تجانس الروح وقد وجد بينهما تجانس دم وروح فقد ائتلفا ومازالا يقويان بعضهما ويتصارعان مع بعضهما دون أن يشعرا كما يتصارعان مع بقية العوامل والقوى حسب نظام الكون فيقوى شيء ويضعف آخر وينضم شيء وينفصل آخر والتحول جار مجراه الى ان صدمتهما باحدهما قوة اقوى فجذبت فريدة اليها الا ان الجاذب كان فقط دمويا لا تجانس للروحين فيه البتة سوى تأثير قوة احدهما وهو الرجل الذي كان معها لذا لما تقابل الثلاثة وكان الاثنان متجانسين دما وروحا اخذت فريدة قوة من فريد بها تغلبت على الرجل الآخر وبقيت مع فريد لان تجانس الدم يتغلب مع المادة وتجانس الروح دائم لان العوامل التي تخضع المادة لها لا شأن لها مع الروح فالروح هي المظهر الثالث من العنصر الفرد الاصيل نعم يمكن الضغط على الروح بواسطة

المادة طالما هي متصلة بها الا أن هـذا التأثير تأثير مفتعل يذهب مع زوال السبب وليس هو بأصيل فالروح لاتتأثر فعليا الا بالروح وعلى هذا فان الحب وما هو الا تأثير التجانس بين الرجل والمرأة اذا كان تجانس دم فقط ذهب عند ما يتلاقى ويتحد الدمان لان القوة التي تصدر من هذا الاتحاد المادي أما أن يأخذها احد الاثنين فيزداد ميل الاول ويقل ميل الثاني او انها تذهب عنهما فتزول بزوالها تلك العاطفة اما اذا كان تجانس دم وروح تقوى تجانس الروح باتحاد وتلاقي المادة بما تستنفده روح الاثنين من تلك القوة الصادرة من تلاقي واتحاد المادة فتتمتن تلك العاطفة وتلك الصلة وتصير فيما بعد صداقة لان الروح تأخذ من المادة وتتقوى بها ولـكن المادة لا تأخذ من الروح بل تحفظ بها

ان كل وحدة من الكائنات مهما صغرت لهي شبه آلة فالجماد والنبات آلات صامتة والأحياء آلات عاقلة . ففي الاولى لايتعدى التأثير المادة أما في الثانية فالتأثير بينها على المادة والروح تأثير يجريه الحي على الحي بارادته مدفوعا بغريزته

الفطرية أو بآرائه أو بعوائده المكتسبة أو يتقبله مرغماً بالنسبة لصلته بالروح والمادة فعلى هذا فان التأثير عام بين الكائنات باجمعها غير أن الاحياء تعانيه وتشعر به والبقية تعانيه بلا شعور لأن الأولى كاملة والاخرى ناقصة فالارض بحيوانها ونباتها وجمادها تتأثر بعضها ببعض كما أنها تتأثر بالعناصر الأخرى وبالكائنات العلوية وتؤثر عليها كما تؤثر الشمس والقمر على الأرض كما نرى في المد والجزر في البحار رأت الحية العصافير فجاءت اليها مدفوعة اما بطبيعتها الفطرية طلبا للغذاء أو بعوائدها المكتسبة ترفها بالمأكل وحيث أن القوة التي بالحية ان جسمية او روحية هي أقوى من العصافير فقد تسلطت عليها واوقفتها بقوة تأثيرها رغم ما كانت العصافير تراه من الخطر المهلك فكانت والحالة هذه قوتها الايجابية ضعيفة جدا بالنسبة لقوة الحية السلبية ولكن لما حضرتم وكنتم مع العصافير على الحية انقلبت الآية وتحولت دفة الميزان فتجث العصافير وهكذا فان الغلبة دائما للقوة قال هذا وصمت قليلا ثم نظر الى اصحابنا الثلاثة يستطلعهم فكرهم وحدق بفريدة بنوع خاص ليعلم مبلغ

فهمها وما استوعبته من هذا الشرح ولكنها لم تطل وقت انتظاره بل قالت له لقد افهمني الشيخ الآن بما ادلى به ما كان لغاية الآن مبهما عليّ فهمه اولا من امور وحوادث شتى وثانيا مما لقيت اخيرا في حادثتي مع فريد لقد كنت اسمع كثيرا عن مثل هذا وكنت أقول ان هذه المسائل خارقة للطبيعة وبهذا كنت اقنع نفسي أما الان فقد أصبحت يمكني بناء على هذه القاعدة أن اعلل مسائل جمة ولما كان الشيء بالشيء يذكر أقول كنت ذات يوم مع اخوتي في نزهة وأذا بطائر كان كأنه جامد في الهواء انقضّ بسرعة على الارض ثم ارتفع وبمنقاره حية خفقنا وارتعبنا قليلا خوفا من أن يفلتها فتقع علينا فتعجبت جدا من أن هذا الطائر لم يخف الحية بل انقضّ عليها واصطادها فتبسم نجيب وقال لو كنت معنا يا فريدة قبل اليوم حين شرح لنا شيخنا سنة التبادل والتوازن لعلمت اكثر من هذا فحقيقة أن من اخذ بالسيف بالسيف يؤخذ فكما أن حيتنا اليوم تقتات بالعصافير كذلك كان طائرك يقتات بالحية وحيث أن شيخنا قد أذن بدخولك في مدرستنا فسنتولى فريد وأنا افادتك عما سبق

وشرح لنا قال هذا ثم نظر الى الشيخ وقال لقد استفلت نظرى في كلام فريده قولها انهم خافوا لما رأوا الطائر مرتفعا وبمنقاره الحية فالخوف كان من الحية طبعا والخوف يكون عند تغلب القوى المهاجمة على المدافعة او على حسب لغتنا الآن السلبي على الايجابي فيماذا نعلل تأثيرهم وهم جماعة من الحية وهي واحدة وفي حالتها هذه لا قوة فعلية لها مع أنه اذا كان هناك تأثير خوف وجب أن يكون من الطائر صاحب القوة على الحية فأجاب الشيخ وقال لقد اصبت فيما قلت ولكن أعلم ان الخوف من الحية في هذه الحالة هو نتيجة وهم تسلط عليهم عند رؤيتهم للحية فذكرهم بما كانوا سمعوا وقرأوا عن الحيات فاضعف فيهم القوة وما أشد تأثير الوهم على الاحياء ويكون الخوف أيضاً من الشيء على قدر توهم الاذية منه فاذية الطائر للانسان جزئية لكن الحية اذا لدغته لربما مات .

الغريزة الفطرية في الاصل هي واحدة في الانسان كما في بقية الاحياء . وضعت فيها لاجل حفظ كيانها في المرحلة التي تقطعها في حياتها فهي الميزان في كل حي

لدرجة معلومة بين السلبي والايجابي . غير انها في بعض اجناس من الاحياء قد ترقت اكثر منها في الاخرى حسب ما طرأ عليها من التأثيرات والتطورات كما أنها في الانسان قد ترقت لدرجة صار يمكن القول عنها انها تغيرت معالمها بما حل محلها من ترقي التصور والابتكار وبما تأثرت به من العادات والاوساط حتى لم تعد البقية الباقية منها تكفي لوحدها لاداء الغرض فوضعوا القوانين والشرائع وما احاطوها به من الاوهام لتقوم مقام هذه الغريزة الفطرية لحفظ ميزة الجنس على غيره . وبما أن الغريزة التي بالحيوان هي نفس العقل الذي بالانسان وهو من خصائص الروح وحيث ان هذه هي مشتركة بين الانسان والحيوان مع حفظ نسبة التفاوت . فلهذا كان تأثير الحيوانات ومنها الانسان بعضها على بعض عظيما كما سبق فذكرت ذلك لقد قلت لكم الان ان كل وحدة من اجزاء هذا الكون هي قوة قائمة بذاتها مهما صغرت او كبرت وهي انما تختلف كبرا أو صغرا بما تقارن به من بقية الوحدات فلهذا فان تأثيرها يختلف فيما تنضم اليه او تنفصل عنه او تصطدم به حسب

نسبتها اليه وفي كل الاحوال لا بد لحصول التأثير فيها ومنها وهذا التأثير هو سبب اختلاف المظاهر والاشكال وتنوع الاجناس وتعدد الوحدات الى ما لا نهاية . واعلموا أن الجاذبيـة ليست سوى مظهر من مظاهر التأثير في المتجانسات ايجابياً او سلبيا للضم او للانفصال . فقالت فريدة أن لي استفهاماً آخرا اظن ان له علاقة بالموضوع ارجو من الشيخ ايضاحه وهو امر شائـع جداً خصوصا بين بنات جنسنا فالبسيطات الجاهلات تؤمن به والمتعلمات تعده من الخرافات والخزعبلات ولقد شاهـدت جملة حوادث بنفسي اوقعتني في حيرة .ولا بد ان شيخنا يكون قد سمع بمسألة العين وما ينسبون لها من التأثير . وها كم ما شاهدته بنفسي وما سمعته ممن اثق بهم تمام الثقة :

كنت ذات يوم مع والدتي وأخي الصغير في زيارة عند بعض الاقارب وكان هناك امرأة قيل لنا أنها عاقر لم ترزق أولاداً فلما شاهدت أخي قالت لامي يالحسن حظك بهـذا الولد واحدقت النظر باخي هنيهة ولـكنها لما خرجت اعترى أخي الم شديـد اضطرنا الى العودة الى البيت ولما كشف

عليه وجد في جنبه ألم يشبه العين في الجهة المواجهة لجلوس تلك المرأة فداويناه عدة أيام كاد فيها أن يقضي عليه حتى شفي وزال الالم . واذكر أيضاً أني كنت مرة مع بعض صديقاتي فجاءتنا احدى البنات من اقارب صديقي ونظرت إلي وكنت ارسم بيدي بعض الرسوم على قطعة من قماش فقالت ما أجمل هذا الرسم وما أخف يدك فيا حبذا لو كنت أستطيع مثل هذا العمل فشعرت في الحال بالم في يدي أوقفني عن متابعة الرسم ولم يزل ذاك الالم الا بعد علاج بضع ساعات وأمثلة هذه الحوادث كثيرة جدا لا بد أن يكون نجيب وفريد يعرفان ايضا منها الشيء الكثير ـ فقال نجيب نعم أني سمعت كثيراً عن مثل هذا ولكن أغرب ما سمعته من هذا القبيل حادثتان . الأولى جرت في بيتنا أرويها عن أهلي والثانية بالقرب من بستان لعمي . فالاولى هي أنه كان امام بيتنا دالية عنب كبيرة كانت مرفوعة من مدة مديدة على سقالة من خشب متينة الوضع كي تقاوم عواصف الشتاء ففي ذات يوم وكان الزمن صيفاً والدالية عليها من العنب الشيء الكثير جاءنا بعض الزائرين ومعهم رجل مشهور عنه

على حسب اصطلاحهم انه يصيب بالعين وكان اهلي لا يعلمون ذلك فرحبوا بهم حسب المعتاد وبعد تقديم القهوة قطفوا لهم بعض العناقيد من عنب الدالية وكانت كبيرة الحجم جميلة المنظر حلوة الطعم للغاية فاكلوا هنيئاً . ثم نظر ذلك الرجل إلى الدالية وقال حقاً ان هذا العنب طعمه في غاية الجودة وهذه الداليه هي حقيقة فريدة في نوعها هنا ـ وفي الحال مالت السقالة وتفككت اخشابها بعضها من بعض وسقطت الى الأرض ـ

والحادثة الثانية هي ان عمي كان مدعوا مع اهل بيته عند بعض الجيران في بستان لهم وكان بين الحاضرين رجل مثل الاول فجرى الحديث عن العين وتأثيرها فتبسم الرجل وقال اذا اردتم ان ابرهن لكم على ذلك فليتفضل اي منكم ويعين لي أي غصن من أغصان هذه النخلة وأنا بنظرة من هنا أقطعه لكم وفعلا تم ذلك مرة ومرتين وثلاثاً فكان هذا الرجل ينظر الى الغصن المعين محدقا به فيسقط الغصن كأنه قطع بسكين حادة حتى دهش الجميع وتولاهم بعض الخوف من عينه وأفعالها ـ فقال الشيخ نعم إن هذه الحوادث لها

مما يستلفت الانظار ولكنها الآن يجب أن تكون عندكم بسيطة لاتستوجب الاستغراب بعد الذي شرحته لكم فان تينك المرأتين في حادثتي فريدة وهذين الرجلين في حادثتي نجيب يملكون قوة عظيمة تخرج من عيونهم كالسهم فتؤثر على الهدف المسلطة عليه على نسبة قوتها وقابليته وكما أن هذا التأثير جرى في هذه الحوادث على المادة مثل يد فريدة وجسم أخيها وسقالة الدالية واغصان النخلة كذلك يجرى كثيراً على الارواح وخصائصها كما كان الحال في حادثتي الحية مع العصافير والطائر مع الحية وكما في التنويم المغناطيسي وانتقال الافكار وخلاف ذلك فقالت فريدة لقد ورها نعم هذا صحيح وأزيد عليه بان الحيوان يمكن أن يؤثر روحا على الانسان كما أن الانسان يمكنه ان يؤثر روحا على الحيوان

وها كم حادثة من جملة حوادث سمعتها عن الضباع: كان أحد أصدقائنا مسافراً في ليلة ظلماء شاتيه من بلد الى بلد وفي الطريق تصدت له ضبع في مكان منفرد ولما رآها اعتراه خوف شديد اضاع رشده وعقد لسانه وفقد كل قوة المقاومة أو الهرب فجمد في مكانه كالتمثال لايبدي حراكا كانه أنيم

مغناطيسيا فتقدمت منه وابتدأت تهشه حيا وتصادف أن مر من هناك في تلك اللحظة اناس سمعوا أنينه فوجدوه على تلك الحالة فعرفوه وكانت الضبع لما شعرت بقدومه تركته ولاذت بالفرار فلحقوا بها وزموها بالرصاص فقتلوها وجاءوا بصاحبنا الى بيته فاجاب فريد وقال لقد كنت سمعت كثيراً عن مثل هذه الامور فكنت انسبها فقط الى الجن والذعر أولا اصدقها ولكن الآن نرى أنها نتيجة عوامل طبيعية كما بين لنا شيخنا ذلك حيث شبه جميع وحدات الكون بالآلات الميكانيكية تنبعث منها القوة السلبية والايجابية وعلى هذا نرى أنه ظهر لنا سبب كثير من الاسرار .

صمت الجميع هنيهة بعد ذلك محدقين بالارض لا ينبسون ببنت شفه ولا يأتون باقل حركة حتى قطع نجيب ذلك السكوت بقوله مخاطبا الشيخ . لقد قال الكتاب . هذا هو الناموس أحبب قريبك كنفسك واكرم اباك وامك . وقد بين الشيخ لنا في كلامه عن التوازن السلبي والايجابي اصل حكمة الآية الاولى والآن بناء على قاعدة التأثير هذه التي لها ايضا مساس بتلك الاية بما يتأثر به الجاني من الانفعالات

المسببة عن المجني عليه يتضح لنا أصل حكمة الآية الثانية لانه مامن أحد يمكنه ان يشعر بتأثير الوالدين من فرح او حزن بغض او حب غضب او سلام مرض أو صحة اكثر من الاولاد لانهم اكثر صلة واكثر تجانسا دما وجسما وروحا وعادة من اي شخص آخر لان الاولاد هم جزء من الوالدين كما أن الغصن يتأثر من الاصل اكثر من تأثره من الخارج ولذا فقد قال الكتاب أيضاً . انه يثأر من الآباء بالبنين الى الجيل الرابع والخامس أي ان التأثير يدوم مادام التجانس لانه بعد هذا يضعف أو يضمحل بما يطرأ عليه من التغييرات وهأنذا اروي لكم حادثة من هذا القبيل سمعتها من احد اصدقائي قال : كان غلام سيء السيرة مبذراً يبعثر كل مايصل الى يديه من الدراهم في اللهو والملذات ضاقت في اصلاحه جميع حيل وارشادات والديه حتى قبض عنه ابوه يده اخيراً فلم يعد يعطيه غير النذر اليسير جدا فتضايق الغلام وعزم على الفتك بأبيه وسمعت الام بالامر فخافت على زوجها من شر ابنها وعلى الابن من سوء المغبة فاخبرت الاب بذلك ورجت منه أن يحتاط للامر ولا يعرض نفسه للخطر لانها عرفت ان الابن

كان عازما على الاقدام على فعلته في تلك الليلة اما الاب فلم يعر الامر ما كانت تنتظره من الاهتمام بل اكتفى بأن سألها اذا كان هذا الولد حقيقة من صلبه ام لا قائلا لها ان على صدقك يتوقف امر حياتي اما الام وكانت امرأة طاهرة الذيل فقد اكدت للاب انها لم تخنه قط وأن الولد هو لاشك ولا ريب من صلبه فاطمأن الاب لهذا التصريح وقبل امرأته وخرج رغم توسلها اليه بالبقاء ولما رجع بالليل كان الولد كامنا له في إحدى منعطفات الدار المظلمة فلما شعر بقدوم ابيه هجم عليه والسكين بيده وهم ان يغمدها في صدره الا ان الأب وكان حذرا ومتوقعا مثل هذا الهجوم وهذه المفاجأة صاح بالغلام وقال له اضرب ياولد هذا صدري أمامك فحين سمع الولد صوت أبيه ارتجفت يداه وخارت قواه وسقطت السكين من يده وانطرح على قدمي ابيه باكيا يقبلهما متوسلا نادما واعدا بأصلاح سيره وفعلا كان ذلك وأصبح ذاك الغلام السيء السيرة المسرف من خيرة الناس سلوكا واقتصاداً ولما كان الشيء بالشيء يذكر أروي لكم ايضاً حادثة حصلت لي شخصيا تبين لنا تأثير التجانس بأجلى بيان : كنت يوما

مسافرا إلى حلب الشهباء لاول مرة وكان معنا أحد المسافرين اخترت محادثته دون غيره لما ظهر لي من الائتلاف بيني وبينه مشربا وفكرا فقضينا الطريق نتحادث في مختلف الامور حتى وصلنا الى محطة قرب المدينة كان وقوف القطار فيها مقررا له بضعة دقائق فقط ولكن بسبب عطل طرأ على الالة طال الوقوف كثيرا فقمنا الى النافذة لنعرف السبب فوقع نظري على ناظر المحطة يجيء ويذهب ملاحظا عمل اصلاح العطل فاستلفت نظري جدا وشعرت حال رؤيته بميل شديد اليه لم أتمالك من أخبار رفيقي به وكدت لولا أن عاود القطار السير حالا ان انزل لاخاطب هذا الرجل فاعلم علمه ومن اين هو . مضت على هذه الحادثة مدة رجعت في خلالها من سياحتي والتقيت بعدها بصديق سألني عما اذا كنت لم اجتمع هناك برفيق صبانا فلان فقلت واين هو فقال انه ناظر محطة كذا فعلمت اذ ذاك أن ذلك الذي شعرت بالميل اليه لم يكن سوى ذلك الصديق فلهذا لما رأيته في تلك البلاد وكان اكثر تجانسا معي من جميع الباقين شعرت بهذا التأثير وعليه افلا نرى أيضا مثلا ان الاسكندري يأتنس

بابن الاسكندرية في القاهرة والمصري بالمصري في الشام والشرقي بالشرقي في أوروبا ولو اختلف عنه بلدا وأصلا ولغة لانهما فيما بينهما اكثر تجانسا منهما مع الغربي وعلى هذا قال المثل أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب

فقال فريد وأني أنا ايضاً أروي لكم بعض الحوادث مما كنت استهجنه أولا لعدم معرفتي لاسبابه أما الآن فقد أصبحت أنظر اليه بغير تلك العين .كان لي قريب فقير يسكن في بيت حقير منزو في إحدى نواحي القرية فأثرى بعد ذلك هذا القريب وأراد أن يحسن حالة مسكنه فبدلا من أن يبني بيته الجديد في موقع أطلق هواء وأجمل موقعا هدم بيته القديم وأقام في محله بيته الفخيم الجديد فضحكت وقتئذ من فعلته هذه فقال لي أنه يشعر بحنان الى موضع بيته القديم وبميل شديد الى ذلك المكان حيث ولد وعاش صبيا وشابا وكان في حديقتنا شجرة كانت تأتيها ليلا جميع عصافير الجوار لتبيت فيها دون غيرها حتى كادت أن تتلف فعمدت جملة مرار على تحويلها الى مبيت آخر ولكن عبثاً كنت

أفعل أخيرا اضطرني الامر لاتخاذ طرق شتى تمكنت فيها نهائيا من ابعاد العصافير عنها الى غيرها حتى سلمت وهذا شاهد آخر على ان قربي ذلك وهذه العصافير كانوا مدفوعين بتأثير العادة والذكرى ذاك للبقاء في موضعه وتلك للمبيت على الشجرة فقال الشيخ وبدافع التجانس ايضا لما تأثر قريبك به من بيته والعصافير من شجرتك سلبا وايجابا اخذا وعطاءا حتى اصبح البيت والشجرة فيهم ومنهم اكثر من المواقع والاشجار الاخرى قال هذا وهم بالقيام والقاء كلمة الختام الا ان فريدة نظرت اليه نظرة رجاء وقالت

بقي أمر آخر عن التأثير والشعور أريد قبل أن ننتقل الى بحث جديد أن أستوضح الشيخ عنه لأنه كثيرا ما شغل ذهني وبحثت فيه مليا دون أن اتوصل لمعرفة السبب الحقيقي له ولكن مما فهمت الآن فانه لابد أن يكون هناك سبب طبيعي واضح لهذا : لقد كنت عندما آتي بأي عمل يؤذي أو يضايق أحداً أشعر بانزعاج داخلي على قدر تصوري للأذية والمضايقة وكنت أيضاً أشعر بعض الأحيان بمثل هذا الانزعاج دون أن أفعل شيئاً وقد كنت أيضاً عندما أسر

أحداً أو أنفعه أشعر بارتياح وسرور كما أني أيضا كنت اشعر بمثل هذا بدون سبب ولكني في كلا الحالين كنت عندما أخبر بعض رفيقاتي بالأمر كان هذا الشعور إن بالارتياح أو بالانزعاج يخف وأحيانا كان يزول فما هو سر هذا يا ترى فأجابها الشيخ وقال أعلمي يا ابنتي أن التأثير الذي يرسله المصدّر الى المرسل اليه يخف أو يزول اذا تعداه الى شخص آخر حسب قابلية هذا للقبول والتصدير بأسرع مما لو حصر في المرسل اليه لأنه في أذاعته تقاومه عوامل خارجية رأسا بخلاف ما لو كان بقي محصوراً لأن المقاومة في هذه الحالة تبقى محصورة بين القوتين المرسلة والمرسل اليها فقط والتأثير يكون عليهما حسب ما بينهما من التكافؤ أو التفاوت وعلى هذا الاساس بنيت حكمة الاعتراف والاقرار ثم أعلموا يا أولادي أنه كثيراً ما يلتقط الانسان رسالات فرح أو حزن غير موجهة اليه رأساً فيتأثر بها على قدر قابليته الوقتية فهو والحالة هذه مثل آلة اللاسلكي التي تلتقط ما يوجه اليها أو ما يمر في طريقها موجها الى غيرها فاذا دخل الواحد منكم مأتما مثلا وكان فرحا مسروراً تولى عليه الحزن والأسى

كذلك اذا دخلتم عرسا وكنتم حزانى تبدل حزنكم بسرور وطرب فاكتفوا الآن بهذه وسأزيدكم غداً بيانا فقد أزف وقت الفراق فانعموا مساء وموعدنا هنا غدا كما كان بالأمس واليوم فشكروا له أيضاحاته وتقدم منه فريد ووضع في يده بعض الشيء فشكر وحيا وقام

الفصل السابع

إن سنن الطبيعة هي واحدة في الممالك الثلاث

تناول الشيخ عصاه وقام متوكئا عليها وولى وجهه هذه الليلة شطر المدينة ولما ابتعد قليلا قال تجيب لفريدة عسى أن لا تكوني حاقدة علي وعلى فريد لدخولك مدرستنا فاذا كان ثمة حقد فيجب أن يكون علي فقط لأن فريدا لم يفعل ألا ما أوحيت به فنظرت اليه فريده فرأته باسما فعلمت أنه انما أراد المداعبة والمزاح ولا غرو فأنه كان يعرف عن فريدة رغبتها بالبحث وشغفها بمثل هذه المواضيع وتفضيلها لها على أي شيء آخر فأجابته قائلة قبل أن أجيبك قل لى كم الساعة الآن فنظر الاثنان الى ساعتيهما وكانت الساعة

التاسعة فقالت هيا بنا ولنسرع لأن وقت العشاء قد حان والجميع في البيت ينتظرون قدومنا فلنذهب اذا شئتما ولا داعي للاحاح فنأكل عندنا سويا وهكذا يمكننا تمضية بقية السهرة في متابعة دروسنا . اليس كذلك؟ قالت هذا ونظرت الى نجيب ثم قالت ومن هنا تعلم أذا كنت حاقدة او مسرورة أما اذا كنت لاتريد ألا أن تسمع كلمة الشكر مني فأني أهديكها لا بل أهديكهما أياها بكل أغتباط وسرور ضحك الثلاثة لهذا وقبلا صاحبانا الدعوة فركبوا أحدى العربات تقلهم الى منزل فريدة فجلست فريدة في الوسط على يمين فريد وجلس نجيب بجانبها يرقبها بكل اهتمام ليرى مايبدو على وجهها ووجه فريدوهما بقرب بعضهما من التأثيرات بدون أن ينتبها اليه لأنهما كانا غارقين كل منهما في ماكان يفكر فيه

سارت العربة مسرعة وهم على هذه الحال حتى وصلت الى أول الجسر فتنبه فريد حينئذ ونظر إلى الماء وكانت الحالة كما كانت يوم النزهة من بضعة أيام فتذكرها ونظر إلى فريدة ونظر الى نجيب وتبسم وقال سبحان من يغير ولا يتغير فأجابته فريدة لفورها وكانت كأنها أفاقت من سباتها صدقت

سبحانه على كل حال ثم صمتت قليلا واحمرت وجنتاها لأنها ذكرت وجودها مع ذلك الرجل يوم رآها فريد ولم تره ولكنها لم تلبث حتى عبست وبانت عليها ملامح الجد والعزم وقالت قل لي يافريد أين كنت يوم الخميس في مثل هذه الساعة قالت هذا بلهجة الآمر المستعلم فحار فريد في أمره لهذا السؤال ونظر إلى نجيب مستفهما مستنجدا وسكت فلحظت فريدة عليه حيرته وارتباكه فقالت لماذا لاتجيب على سؤالي فأن الأمر له علاقة بما سمعنا الآن من الايضاح فقل لي ولا تتردد حتى ولو كان هناك مايدعو الى الكتمان والمجاملة أو الخجل فنظر فريد الى نجيب ثانية وقال مارأيك يانجيب فى سؤال فريدة فأجابه نجيب وقال تكلم ياأخي فالحقيقة يجب أن تقال ولو جرحت وفريدة أعقل من أن تجرحها الحقيقة ونحن الآن هنا نتكلم بالروح والروح ليس لها جنس فهى لاذكر ولا أنثى فقال فريد اذن فلنترك المجاملة والخجل :لقد كنا هنا يا فريده لا بل كنا في أحد القوارب نتنزه في النيل نروح ونجيء أمام هذا المكان فاحمر وجه فريده أولا ولكنها تملكت نفسها وتبسمت وقالت أنت ومن : قال

نحن الاثنان نجيب وأنا فقالت أذن لقد رأيتماني ؛ فقال نعم لقد رأيناك لا بل رأينا كما فقالت كفى لقد فهمت الآن سر انزعاجي تلك الليلة وهذا ما كنت أريد معرفته لقد صدق الشيخ فيما قال فان تلك الليلة قد التقطت جميع ماوجهت الي من التأثير لان انزعاجي كان لدرجة قصوى حتى غيرني من حال الى حال فثق بأن جميع حبي الماضي لك قد تحول الى صداقة خالصة لقد خنقت الصداقة الحب فنمت به وتقوت بما تغذت من أشلائه كما يتقوى الانسان الضعيف بما يأكل من لحم حمامة أو حمل فقال نجيب وهذا دليل على تجانسكما مادة وروحا ولولا ذلك لانقلب الحب الى بغض شديد فقال لان الضعيف اذا أكل لحم الاقوى بدل الحمامة والحمل مات بدلا من أن يتقوى

وصلت العربة الى منزل فريدة فنزل الثلاثة ودخلوا البيت فوجدوا الجميع على وشك تناول الطعام فسار الكل الى قاعة الأكل فتمشوا وتسامروا قليلا ثم خرجوا الى الجنينة طلبا للنزهة يتمشون بين زهورها وأشجارها كل مع من طابت له مسامرته من الحاضرين أما فريدة ونجيب

وفريد فقد انفردوا لوحدهم يتابعون حديثهم وفيما هم كذلك ابتعدت فريدة قليلا وأسرعت الى مكان مخصوص في الحديقة حيث كانت منذ مدة زرعت زهرة نادرة كان أحد أصدقائها أهداها اليها ثم عادت كئيبة لأن تلك الزهرة كانت قد ذبلت وتلاشت بما نبت حولها من الأعشاب الأخرى شعرت فريدة بعد ذلك بألم في رأسها فاستأذنت من صاحبيها ودخلت حجرة نومها بعد أن اتفقت معهما على المقابلة لميعاد الغد كان دخول فريدة حجرتها كتنبيه للقوم للذهاب فانفرط عقد الحاضرين وذهب نجيب وفريد مع من ذهب كل منهما الى منزله حيث أن الليل كان قد انتصف

في اليوم التالي اجتمع اصحابنا الثلاثة وساروا للقاء الشيخ فمروا في طريقهم وسط الحديقة الكبيرة وكان الناس ذرافات يروحون ويجيئون في مماشيها وقد جلس بعضهم على الخضرة تحت ظل الأشجار وبعضهم نام في الشمس وكانت الطيور تحوم هنا وهناك فوق الناس تحط تارة على الارض وطورا على الاشجار فتلتقط شيئا ثم ترتفع وكان بعضها يتنقل من جهة الى أخرى ومنقاره بالأرض

يبحث عن الديدان ليقتات بها وكان البستانيون منهمكين كل في عمله في خدمة الحديقة فمنهم من كان يقتلع الأعشاب من بين الزهور ومنهم من كان يروي الأرض ومنهم من كان يحرثها وكان البعض يسمد بعض القطع لأعدادها للزرع وبعضهم يلقي البذور أو ينقل النبت من مكان الى آخر

مشى أصحابنا وسط هذا كله وهم صامتون يفكرون فيما يرون ولكنهم لم يلبثوا حتى استوقف انظارهم بعض المشاهد أذ كان أحد البستانيين قد تسلق نخلة شامخة وكان بيده شيء أخذ ينفضه على ما كان عليها من الحمل فقال فريد لنجيب أنظر يا أخي الى جشع الأنسان فأنه يريد أن يحصر كل شيء فيه ويحرم غيره حتى من قوته فها أننا نراه وقد ركب الأخطار وتسلق هذه النخلة العالية يرمي على حملها من المواد ما تعافه بقية الطيور والحيوانات ليحفظه بجملته لنفسه ويجنيه كاملا حين نضجه فأجابه نجيب وقال اني وإن كنت أوافقك تمام الموافقة على ما يختص بالجشع الانساني الا ان ما يفعله هذا الرجل الآن فوق النخلة ليس

هو ما توهمت بل انه انما يقوم بعملية التلقيح فان ما تراه في يده ينفضه عليها ما هو الاجنبي نخله ذكر جاء به هذه النخلة الأنثى ليثبت وينمي وينضج به ما عليها من الحمل فتعجب فريد من هذا وقالت فريده هل يوجد ايضاً بين النبات ذكر وانثى سبحان الله إن هذا لعجيب غريب فأجابها صوت من ورائها وقال نعم ولكن ليس في الطبيعة شيء غريب بل ان الغرابة تظهر لمن لا ينظر الا للظواهر فقط فالتفت الجميع الى الوراء فرأوا الشيخ واقفا خلفهم وقد كان في الحديقة حينما دخلوها فراهم ذاهبين الى المقعد المعلوم فتبعهم دون أن يروه ولم يشأ باديء بدء أن ينبههم الى وجوده لئلا يعكر عليهم صفوهم ويضايقهم بوجوده معهم فسار وراءهم كظلهم حتى وقفوا تجاه النخلة وكان من حديثهم ما كان ففرحوا بهذه المباغتة وحيوه بكل أحترام فرد عليهم التحية باحسن منها واعتذر لهم عن مقاطعتهم الحديث ثم تابعوا السير جميعا وتابع هو الكلام قائلا .

أعلموا يا أولادي أن سنن الطبيعة هي واحدة في

جميع أجزاء الكون كما هي واحدة في الممالك الثلاث وهي تسير على نظام أثبت من الثبات وتنفذ بدقة تامة ولو اختلف شكل التنفيذ لأن الأصل واحد فالسلبي والايجابي هما في كل شيء يتجاذبان بما تفرع عنهما من الوحدات التي لا تعد ولا تحصى فيتأثران بفروعهما دون ان يختلا بالمجموع وعلى قدر التأثير تتغير الظواهر فياخذ هذا من ذاك وذاك من هذا فيتغير الآخذ والمأخوذ منه ويتحول هذا من شكل الى أشكال أو من وحدة الى وحدات وذاك من أشكال الى شكل او من وحدات الى وحدة للناظر ولكن الأصل باق لا يتغير مثل الماء سائلا ومتجمدا وسحابا

يجامع الحيوان انثاه فيتولد منهما حيوان فيعطيان ويأخذان ويتغير الكل مظهرا رويدا رويدا حسب التأثيرات الكلية والجزئية الأرضية والجوية التي تؤثرها ارضنا على موجوداتها واجزائها او حسب التاثيرات والعوامل التي تتأثر بها ارضنا من العوالم والأفلاك والكائنات الاخرى كما نراه ونشعر به من تأثير الشمس والقمر مثلا علينا وعلى ارضنا وعلى ما فيها وما عليها وما الجاذبية سوى تأثير تجانس

العناصر بعضها على بعض ليلتحق كل عنصر بعنصره والغلبة للأقوى ترمي قطعة خشب من علو وهي بشكلها هذا عنصرها الترابي الغالب فتقع مجذوبة على الارض ولكن اذا حللت بالحرق فالهواء الذي فيها يذهب مع الهواء وماؤها يتبخر والنار التي فيها تلتحق بعنصرها حتى ان ترابها الذي هو الرماد يضيع من مناعته النسبية امام بقية العناصر فيتغلب الريح عليه فيجذبه اليه ويطير معه وعلى هذا اقول لكم ان لا شيء يخلق نفسه ولا شيء يفنى بل ان الكل موجود والكل باق غير ان المظاهر تتحول وتختلف وتتغير

لقد قال الكتاب لا شيء جديد تحت الشمس لأن التحول عام شامل قصرت مدته أو طالت قالوا أن التاريخ يعيد نفسه بما يختص بالحوادث وأنا أقول لكم أيضاً أن الطبيعة أصل الحوادث تعيد أيضاً نفسها لأن سننها واحدة في الممالك الثلاث كما أن أصلها واحد فما هو حاصل الآن على كرتنا الأرضية حصل قبل ذلك ما يشابهه في القمر أو في الاجرام التي سبقت الأرض في تكوينها وصلاحيتها للحياة النباتية والحيوانية كما أن حالتها الآن سوف تتبدّل

وبما فيها وبما عليها الى شكل أو أشكال أخرى بما سيطرأ عليها من عوامل التأثير نعم هذا لا بد له من زمن ولكن الزمن ليس موجودا في الطبيعة أي في الأصل لأن الأصل أبدي أزلي سرمدي والزمن هو فقط للزائل المحدود يختلف قلة أو كثرة حسب قلة أو كثرة الشيء ومناعته الوحدانية وسوف يأتي زمن تكون فيه أرضنا في حالتها كما هي الحال الآن فيما سبقها من الأجرام نسبيا

وصل الجميع الى حيث المقعد الخشبي موضع الاجتماع فصمت الشيخ وجلس الجميع بجانبه وبقي هنيهة صامتا ناظرا أمامه كأنه يستوحي الوجود ثم عاد الكلام قائلا إنكم لو نظرتم بأنعام وتفكر الى ما شاهدتموه الآن يجري في الجنينة حيث مررتم والتقينا تجلت لكم أسرار وسنن الطبيعة بأجمعها فيمكنكم تطبيقه على ما سبق فشرحته لكم وعلى ما سوف تسمعون : لقد رأيتم الطيور تنقد الديدان من الارض لتقتات بها والناس تنظر اليها فكأنها عرفت أن الانسان يحميها ويعاونها على عملها هذا واذا تسألنا عن سبب سكوت الانسان أجانبا الواقع بأن الديدان التي

تلتقطها هذه الطيور هي مما يزاحمه على زرعه فرأى في هذه الطيور عونا له على التخلص من مزاحم حال كونه في ظروف أخرى نراه ينقض على تلك الطيور فيقتنصها ويقتات بلحمها ويدثر بريشها ويتزين به فهذا المظهر يمثل الحياة الحيوانية وهو يعم جميع أجناسها من الميكروب الصغير الذي لا يرى الا بالمنظار الى الفيل العظيم ومن الدودة التي ليس فيها من الروح سوى الروح المحركة الى الانسان ذي الروح الراقية المخترعة فما هو الفرق يا ترى بين هذه الطيور تحط فتلتقط تلك الديدان فتقتات بها وبين الانسان يصطاد الاسماك ويقتنص الغزال ويرمي الطير بنباله ورصاصه ويذبح الغنم والبقر والماعز ليأكل لحمها ويستعمل بقيتها في منافعه ؟ ما الفرق يا ترى بين هذه الديدان وهذه الطيور وبين الطيور بعضها مع بعض فينقض الباشق فيأكل العصفور وبين الحيوانات أيضاً بعضها مع بعض فيهجم الذئب على الغنم والأسد على البقر والثعلب على الفرخة فيقتات هذا من ذاك وذاك من هذا ما الفرق يا ترى بين الانسان يطارد الوحش فيقتله ويظفر الوحش به فيأكله لا بل ما الفرق

بين الحيوانات تأكل بعضها بعضا وبين الانسان في قبائله المتوحشة يأكل أيضاً بعضه بعضاً ما الفرق أيضاً بين الانسان يأكل لحم بعضه كما كان قديما وكما هو الآن باقياً ليومنا هذا في بعض القبائل المدعاة غير المتمدينة وبين الانسان الحالي الراقي المتمدين يفتك بعضه ببعض بما يسهره بينه من الحروب الطاحنة ويستعبد قوية ضعيفه منمقا لذلك ما يحلو له من الالفاظ من استعمار أو حماية أو رقابة وانتداب أليس أصل هذه الاعمال واحد؟ إن الطبيعة واحدة في الانسان والحيوان في جميع أجناسهما وما التمدن سوى طلاء يغطي مظاهرها ويختلف كثافة باختلاف درجة الفرد أو المجموع في التعليم أو التقليد أو الاخلاق المكتسبة والرقي يدوم هذا الطلاء طالما لا يمس الاصل حتى اذا ماس هذا ثار ثائر ونفض عنه ذلك الغبار المغشي وتجلى بحقيقة طبيعته فلا تغتروا يا أولادي بالمظاهر فان الطبع غالب والتطبع مغلوب فتبسم فريد وقال لقد صدق شيخنا وقد ذكرني هذا البيان بقصة قرأتها أخيراً: قيل أن ملكان من الملوك كان له وزير حازم مجرب فكان يصدر عن رأيه ويتعرف اليمن في مشورته

ثم أنه هلك ذلك الملك وقام بعده أبنه فعجب بنفسه واستبد برأيه فقيل له أن اباك كان لا يقطع امرا دونه فقال كان أبي يغلط في ذلك ولكن سأمتحنه بنفسي فارسل اليه وقال ايهما اغلب على الرجل الطبع أو التطبع فقال له الوزير الطبيعة أغلب لانها اصل والتطبع فرع فدعا بسفرته فلما وضعت اقبلت سنانير بايديها الشمع فوقفت حول السفرة فقال الملك للوزير اعتبر خطاك وضعف مذهبك متى كان ابو هذه السنانير شماعاً فسكت عنه الوزير وقال امهلني في الجواب الى الليلة المقبلة فقال ذلك لك فخرج الوزير فدعا بغلام له فقال القمس لي فأرة واربطها بخيط وجئني بها فاتاه بها الغلام فعقد الخيط في زر ثوبه وطرح الفأرة في كمه ثم راح من الغد الى الملك فلما حضرت سفرته اقبلت السنانير بالشمع كالعادة فاخرج الوزير الفأرة من كمه ثم القاها اليها فتسابقت السنانير اليها ورمت بالشمع حتى كاد البيت يضطرم ناراً فقال الوزير كيف رأيت غلبة الطبع على التطبع ورجوع الفرع الى اصله فقال الملك صدقت فقال له الشيخ بارك الله فيك يا فريد هذه أيضاً حكاية تفهمكم أن لا فرق

بين هذه السنانير حملة الشموع على مائدة الطعام وبين الشعوب الانسانية في مقرراتها على مائدة السياسة فكم أبرمت من مواثيق وقفت حينا بموجبها وقفة زينت بها المظهر الانساني الراقي ولكنها تحولت عنها حالما ظهرت لها فأرة المنافع فأحرقت وخربت وقتلت وشنعت ولم تبالي بما سنته من الشرائع وبما وضعته من القوانين وبما حللته وبما حرمته وبما أدعت نزوله وحيا بل سارت في طريقها لا تبقي ولا تذر ولم تقف الا عندما صدمها حائل تقوى عليها فلم تستطيع اقتحامه فسكن ثائرها مغلوبة من القوة المصادمة الطبيعية ولم تكن من قبل لتوقفها العوائق التطبيعية فاني قد قلت لكم وأعيد القول بأن الغلبة فقط للقوة ولو اختلفت مظاهر القوة لأن القوة هي الطبيعة وهي أصل التأثير ولهذا فقد جاء بالكتاب الكريم من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه ماله لان الضعيف من الكائنات يجذبه الاقوى اليه فيضمه بطرق شتى ويحوله الى مظهره تبعا لسنة التأثير ويبقي المظهر الجديد شاملا الى أن يتحول الى مظهر آخر لان العوامل المكونة بقوة

حركتها الدائمة هي نفسها المحولة وهكذا الى ما لا نهاية له

انظروا يا أولادي الى هذه العناكب والى شباكها التي تحيطها على هذه الشجرة فوقنا من نسيجها لتصيد بها الذباب قوتها اليست هي مثل هذه الشباك التي بيد هذا الصياد أمامنا يلقيها في الماء يصيد بها الاسماك أوليست هي أيضاً مثل تلك الشباك الشائكة التي يصنعها الانسان في في حروبه الان ليمنع بها أعداءه من الدنو اليه

ترك الناس تلك الطيور تنقد تلك الديدان لأن الديدان تضر بزرعهم ولكن لو كانت تسقطت تفاحة أو ثمرة مما يطيب لهم أكلها فهل كانوا يتركونها لتلك الطيور أو يتركون الطيور تقربها؛ كلا ثم كلا ولكن تلك الديدان نفسها سوف تفتات بدورها من تلك الطيور ومن الانسان أيضا الذي لم يدافع عنها طبقا لسنة التبادل فالسابي يثأر لنفسه من الايجابي والايجابي يثأر لنفسه من السابي. يتوالد الحيوان بمجامعة ذكره لانثاه لا فرق في ذلك بين طير السماء وسمك البحار ووحش البر وكل ذى نسمة حية كما يجري بين الرجل والمرأة لافرق في الاصل البته بين هذا وذاك فالذكر الزارع والانثى الارض

المنبتة وهو بالنسبة اليها يمثل العنصر السلبي وهي بالنسبة اليه تمثل العنصر الايجابي وباجتماعهما يظهر في الوجود آخر بشكله المعلوم وهو في الوجود من قبل ومن بعد فيسير سيره تتجاذبه العوامل الاخرى من بقية الكائنات تحت نظام التأثير والاخذ والعطاء فيأخذ منها ويعطيها ويتأثر بها وتتأثر به الى أن يتبدل ذلك الشكل ليأتي شكل آخر وهكذا الى ما لا نهاية له

هذا فيما يختص بالمملكة الحيوانية وهو عين النظام الذي يتمشى عليه النبات والجماد لقد شاهدتم البستانيين يقتلع بعضهم الاعشاب من بين الزهور ليبعد عنها مزاحما يمتص من خواص الارض مالو بقي لها وحدها لامتصته هي فنمت وتقوت وأتت بمحصول كثير أخليت الارض لتلك الظهور فنمت وأزهرت كثيراً ولكنها في سيرها هذا لم تخرج عن سنة التأثير والتبادل خلصها الانسان من مزاحم فامتصت قوته فازدادت نموا وأخذ الانسان من زهورها مقابل تعبه لها تأثرت قوتها بما امتصته من المواد المنمية فنمت بزيادة ستدفعها من ضعفها في السنين المقبلة

اذا لم يتداركها عامل غير اعتيادي يمنع ذلك الضعف ليثبت توازن ذلك النمو لأن من قاوم الطبيعة صرعته الطبيعة لأنها هي الأصل وهي المتبوع وكل شيء لها ولأحكامها تابع فمن خالف سننها ولم يماشها لا يطول أمده وهذا سر ما رأيتموه من فعل البعض الآخر من البستانيين اذ كان بعضهم منهمكا في تسميد الأرض وبعضهم في نقل النبات من مكان الى آخر وفي حرث بعض قطع من الأرض وري بعضها فعملهم هذا هو ذلك العامل الغير الاعتيادي الذى لولاه لوقف ذلك النمو وتحولت قوته الى ضعف وهو عمل تساوى فيه النبات والجماد فلو لم ينقل النبات من مكانه الى مكان أصلح به من الخواص المنمية ما ليس يوجد في مكانه حيث كان لما نما وترعرع . ولو لم تسمد الأرض وتحرث وتروى لأعطاها من الخواص عوض التي فقدتها باجهادها بالزرع لما كانت أخصبت وهكذا فهي أعطت وأخذت وأخذ النبات فأعطى وأعطى الانسان فأخذ وبهذا عمت هذه السنة الممالك الثلاث . أجابت فريدة وقالت ولكن لو لم تسمد الأرض وتروى وتحرث لكانت أيضا أنمت تلك النباتات

فازهرت زهورها فجناها الانسان دون تعب أجابها الشيخ وقال اعلمي يابنيتي أن ذلك الأنماء كان يكون في هذه الحالة نسبيا على قدر ما كان بقى في الأرض من المواد المخصبة وما تكون أخذته في تلك الفترة طبيعيا عاديا لأن ذلك العامل الغير عادي الذى به استغلت الأرض فانمت النباتات بجب حتى يبقى ذلك الخصب وذلك النمو محفوظا ان يقابل بعامل غير عادي أيضا وفي هذا يتساوى أيضا الحيوان بجميع أجناسه فالانسان او الطير أو الوحش أو السمك الذى ينمو نمواً مفتعلا لابد ان يعقب نموه هذا رد فعل يظهر بتوقف ذلك النمو أو بانحطاطه اذا لم يدعم بعامل مفتعل آخر خذى يابنيتي نفسك مثلا ولنقل أن قواك تمكنك من الذهاب مشيا من البيت الى الاهرام مرة في اليوم ولكنك اذا اجهدت نفسك وذهبت مرتين فهل يمكنك في اليوم الثاني أن تذهبي كما كنت تذهبين من قبل دون ان تعوضي ذلك الأجهاد أما براحة أزيد من قبل أو بأكل أكثر تغذية من قبل أو بتناول اي مقو يعيد لك قواك التي فقدتها بذلك الاجهاد ؟ اقول لك كلا فانك ان لم تستعيضي

عن المرة الزائدة بأي عامل آخر فأنك لا يمكنك الذهاب في ذلك اليوم كما كنت تذهبين من قبل كما هي الحال مع تلك الأرض وتلك الزهور لأن السنة واحدة فكما أن الجمل اذا حملته فوق طاقته رزح تحت الحمل كذلك قطعة الحديد أو الخشب تنكسر أو تلتوي اذا لم تدعم وتتقو

تشاهدون بين الحيوان أن هذا الصنف الذى يعيش في تلك البقعه او في تلك القارة هو أقوى او اضعف من ذاك الذي يعيش في غيرها كما انكم ترون هذا أيضاً بعينه بين النبات وبين الجماد فكم نسمع البائع يقول بسوسي يا شمام بلدي يابرتقال حتى يظهر افضلية مامعه على غيره وكم نلاحظ ان سكان الجبال هم أقوى بنية من سكان السهول مثلا وسكان الارياف هم أقوى واصح جسما من سكان المدن وان هذا الصنف من الحديد او الفولاذ او الفضه والذهب أو اي معدن آخر يختلف باختلاف البقعة التي استخرج منها أفليس هذا كله منشأه سنة التأثير التي تعم المالك الثلاث ؟

فقال نجيب لقد حل لي الشيخ بما ابانه الآن عقدة طالما حاولت حلها فلم اتوفق لما كان يعترضني من المتناقضات

اذ كنت عند ما أتعب من البحث فيها بلا جدوى مقنعة أنسبها الى عمل سماوي لغاية مجهولة

لقد قال الكتاب الكريم أن الاسرائيليين عند خروجهم من مصر وعلى رأسهم موسى الكليم ذلك الرجل العظيم الذي أخذ العلم والحكمة على كهنة مصر ففاقهم جميعاً وأتى بمعجزات أذرت بجميع ماعملوا قد تاهوا في برية سيناء أربعين سنة وفي موضع آخر يقول الكتاب ان موسى هرب بعد قتله المصري الى تلك البقعة نفسها فعاش فيها العشرين سنة ومنها تزوج فعرفها طبعاً وعرف كل مجاهلها فهل يعقل يا ترى أن رجلا مثل هذا وقد تصدى لخلاص قومه من رق العبودية وقاد ذلك الشعب بأكمله رجالا ونساءا شيوخاً وأطفالا يأتي الى ذلك المكان فيتيه فيه ولا يعود يعرف منه له مخرجاً طول هذه السنين ؟ أمام هذا كنت أقف حائراً لا أجد لهذه العقدة حلا موفقاً معقولا فكان فكري أمامها يصبح تيهاً يتيه فيه عقلي أما الآن فأرى أن موسى وقد كان توفق لتنفيذ الشطر الاول من خطته وعرف كيف يجتاز بقومه في ساعة جزر في بحر القلزم في مكان

يعرفه حق المعرفة ثم يفري عدوه باللحاق به فيدركه المد فيسد عليه السبل فيفرق بخيله ورجله عرف أيضاً أن ذلك الشعب الذي خرج به من مصر حيث كان مستعبداً قروناً طويلة سيم فيها الذل والمسكنة فأفقده الاضطهاد والاحتقار مناعته وذاته المعنوية وكل مزية طيبة فتأثرت قواه بذلك تأثيراً توارثه أباعن جد فتأصل في جسمه ونفسه وضاعت معه كل همة وعزة نفس واقدام لا يصلح في حالته الراهنة لمصادمة وقتال شعوب قوية شديدة المراس منيعة الجانب ربيت في الحرية فاضطر الى تأخير تنفيذ الشطر الثاني من تلك الخطة المدبرة بأحكام عظيم يليق بذلك العقل الذي أبرز أمتن وأحق شريعة عرفت حتى قال عن ناموسه السيد المسيح ان السماء والارض تزولان وحرف من الناموس لا يزول فعمد الى حيلته هذه فأضاعهم حيث قادهم وأبقاهم تلك السنين ليعوض عليهم فى حياة البرية الحرة ما أضاعوه في عيشة الذل والهوان والاستعباد ليقوم مقام هذا الجيل الخامل الضعيف جيل جديد همام قوي يصلح للقتال والمقاومة والغزو يستولى به على ماكان يطلب

من البلاد فيخضع به شعوبها ويطردها منها فيحل محلها فيها كما حدث وتحقق فنظر اليه الشيخ وقال صدقت يابني باستنتاجك هذا لأن ذلك الشعب كان في حالته مثل تلك الارض المجهرة التي لا تصلح للزرع قبل أن تستعيض ما فقدته من الخواص ومثل ذلك الضعيف الذى اناخه التعب فلم يعد قادراً على متابعة السير قبل استرجاع قواه ولا غرو اذا كان موسى عرف ذلك لان بعض الحقيقة كان معروفاً لديه ولدى اساطين ذلك العصر

فما تقدم يظهر لكم أن السنتين الاصليتين الجامعتين الخاضع لهما جميع مافي الكون هما سنة التبادل أو التوازن وسنة التأثير ومنهما تفرعت جميع بقية السنن وعليهما بنيت جميع الشرائع والتحليلات والتحريمات ولا غرو فهما في الاصل مظهر الينبوع العظيم الاصيل الفرد فهما السلبي والايجابي يبدوان بفروعهما التي لا عد لها ولا حصر باشكال ومظاهر مختلفة حتى يتعذر على الناظر اليها معرفة حقيقتها فيظنها أنها متعددة الاصول كما هي متعددة المظاهر والفروع ولكن المتعمق في البحث تقل لديه الاصول على قدر ما يقترب من الحقيقة

ويزداد التجانس على قدر التقارب حتى ينحصر في أثنين فقط فيما يختص بالمادة

أفليس مظهر الذكر والانثى الكبير والصغير الحلو والمر الرخص والصلب السائل والجامد البرد والحر الظلام والنور الاسود والابيض يمثل السلبي والايجابي ؟

انظروا الى تنوع النبات واختلاف أجناس الحيوان وتنوع أصناف الجماد وكثرة معادنه وكيف أن كل نوع أو جنس يقاوم الآخر أو يتحد معه أو ينفصل عنه على قدر كثرة أو قلة التجانس بين الاثنين . فان الفضة تتحد مع الذهب حتى كأن الاثنين جسم واحد ولكنها لا يمكنها الاتحاد بهذه الصورة مع الخشب مثلا . واذا صب الرصاص مع النحاس لا يتحد معه كما لو صب الرصاص مع الفضة وهكذا أيضا في النبات فاذا تطعم النخيل بالبرتقال مثلا لا يعيش ويثمر أما اذا تطعم البرتقال بشجر آخر اكثر تجانسا معه اتحد وعاش واثمر وما نراه في الجماد والنبات نراه ايضا في الحيوان فأن الحمار اذا جامع البقرة فهذه لا تحمل ولا تلد أما اذا جامع الحصان الآتان حملت وولدت واذا جامع

الانسان ناقة أو شاة لا تحبل ولكن الفرد اذا جامع امرأة لربما حملت وولدت واذا جامع الحيوان الطير فان هذه لا تبيض فتفرخ أما اذا جامع ذكر الحمام انثى طير من فصيلته باضت وفرخت

لقد قلت لكم فيما سبق أن العوامل المكونة أو المساعدة على التكوين هي نفسها المحولة أو المساعدة على التحويل يتساوى أمام ذلك الحيوان والنبات والجماد فيسير الكل سيره حسب سنتي التأثير والتبادل . يولد الحيوان من بطن أمه صغيراً ضعيفاً فيقوى بالغذاء والهواء والنور والحرارة والماء حتى يصل الى درجة معلومة من القوى ثم يرجع القهقري حتى يضعف ويشيخ ويحل به العجز . فيموت هذا اذا لم يصادمه طارئ لم يقو على مكافحته والتغلب عليه فيموت ويتحلل قبل أوانه وينبت النبات فيسير على الطريقة نفسها فيزهو وينمو ويثمر ثم يضعف فيذبل ويبس ويضمحل . ويتكون الجماد بجميع معادنه ويسير خاضعاً لذلك الناموس فيتغير ويتبدل ويتحول حسب ما ينضم اليه أو ينفصل عنه من المواد والعناصر الاخرى وهكذا دواليك في جميع

الكائنات لان العناصر الاربعة المتولدة من العنصر الاصيل الفرد المكونة هي نفسها المحولة حسب تأثيراتها بعضها على بعض أن رأساً أو بما تفرع عنها ألا ترون أنه اذا زادت الحرارة فى جسم حيوان عن المعتاد أو قلت عنه مات ذلك الحيوان أو مرض واذا عرض جسم آخر لأي من العناصر أكثر مما يلزم أضر به هذا التعريض وأثر به إن قليلا أو كثيراً على نسبة مناعته لأن الاشكال جميعها فى مظاهر المالك الثلاث تكونت على نسبة معلومة من كميات معلومة فيما بينها فاذا زادت كمية عن نسبتها أو نقصت ابتدأ التحول والتغير بالشكل .

فأي فرق في الحقيقة بين الصدأ الذي يغشى الحديد اذا لحقت هذا الرطوبة وبين الزكام الذى تسببه الرطوبة لكم فان الاول لايزول الا اذا جلي الحديد والثاني لايزول الا اذا قاومتموه بالمسخنات أفلا ترون أيضاً أن النبات اذا روي بكثرة عما يلزمه أو اذا عطش أضربه ذلك الرى وذلك الظمأ وأن الحيوان اذا شرب أكثر مما يلزمه أو اذا ظمىء ظمأ شديداً أضربه ذلك الشرب وذلك الظمأ كل على

قدر نسبته

قال هذا وهم بالقيام غير ان فريداً استوقفه بقوله له ليسمح لنا شيخنا بسؤال عن أمر يشغل بال بعض علماء هذا العصر ويثير أهتمام الناس وهو أمكان وجود الحياة في بعض العوالم الأخرى مثل المريخ مثلا وهل في الامكان اذا وجدت التوصل للتخابر معها أو التوصل الى الوصول منا اليها أو منها الينا فأجابه الشيخ قائلا أني الآن تعب تلزمني بعض الراحة وأرى أن الوقت قد حان فموعد الاجابة على سؤالك هذا غداً أن كان في العمر بقية فأنعموا أذاً مساء يا أودي .

قال هذا وقام وصافحهم فتقدمت منه فريدة وبيدها صندوق صغير به بعض المآكل وشيء من الحلوى وصرة بها قليل من الدراهم وقدمته له راجية قبوله فتناول تقدمتها شاكرا ممتنا وصافحها ثانية وابتعد

الفصل الثامن

ارتباط عموم أجزاء الكون بعضها ببعض ووحدة أصلها

مكث أصحابنا بعد ذهاب الشيخ قليلا مفكرين بما سمعوه يساعدهم على ذلك جمال الطقس وجلال الموقع وهدوء الليل ولبثوا كذلك برهة ليست بقصيرة حتى قطعت فريدة ذلك السكون بقولها لهما : ما قولكما في شروح أستاذنا أني أراه أصاب كبد الحقيقة فأني كلما فكرت فيما سمعنا وقارنته بالواقع أراه ينطبق عليه تمام الانطباق ولكن هذا فيما يختص بنا وبعالمنا وما يدرينا ما هي الحقيقة في العوالم الأخرى لذا فأني منتظرة بفروغ صبر يوم غد لنرى ماذا يقول في هذا الصدد خصوصا وقد فتح لنا هذا الباب الصديق فريد بسؤاليه المذكورين : أليس كذلك؟ فأجابها نجيب وقال أني أوافقك تمام الموافقة على ذلك ولكن فلنفرض أن شيخنا لم يعد بسبب طارىء لم يكن في الحسبان أفلا يمكننا نحن الآن بقوة الاستنتاج استنادا على ما سمعنا أن نجيب أنفسنا على هذا فما قولك يا فريد ؟ فنظر فريد اليه

مستفهما وقد بهت لهذا الكلام وقال وكيف يا أخي يمكننا ذلك. أجابه نجيب وقال فلنجرب وما عليك الا أن تراجع ما قاله لنا الآن فقط في حديثنا اليوم ولا أقول أحاديثنا الماضية مع أنك كنت معي في جميع الاحاديث وما فاتك من الاحاديث الاولى شرحته لك ترى فيه ما يساعدك على الاجابة ولكن مع ذلك سأكفيك مؤنة المراجعة والبحث فهيا بنا الآن نسير الهوينا لأني تعبت من الجلوس فقاموا وساروا معا وبعد هنيهة لزم فيها نجيب الصمت عاود الكلام وقال :

لقد قال شيخنا الآن في سياق الحديث ما كان سبق أيضاً وقاله : من أن السلبي والايجابي هما في الاصل مظهرا الينبوع العظيم الاصيل يبدوان بفروعهما بأشكال ومظاهر لاعد ولا حصر لها وأن الكل من ذلك الينبوع خرج والى ذلك الينبوع يعود فان الطبيعة أصل الحوادث واحدة تعيد نفسها وتسير على سنة واحدة فما جرى ويجري في عالمنا جرى ويجري فيما يماثله من العوالم الاخرى وسوف يجري أيضاً هنا كما جرى فيما سبق كرتنا الارضية في التكوين أذاً فلا بد أن

تكون هناك حياة أو كانت هناك حياة حسب صلاحية تلك العوالم الماضيه أو الحالية اذ لا وجه لتخصيص الارض لوحدها بالحياة دون غيرها طالما أن الاصل واحد فأجابه فريد وقال وما هو الدليل على وحدة الاصل يا ترى أهل هو قولك أو زعم شيخنا فقط وهل قوله أو زعمه هذا يكفي للدلالة على ذلك

أجابه نجيب باسما وقال كلا ليس زعم شيخنا وقوله بكاف لنا لنأخذ الامر قضية مسلمة ولكن لنا أيضاً مما قاله في سياق الحديث وما أورده من الحوادث بعض الادلة المثبته . أفلم يقل عن تأثير الشمس والقمر على الارض وعن المد والجزر وعن التأثيرات التي تتأثر بها أرضنا في دورتها من العوالم الاخرى مما هو مثبوت علميا ومما نشعر نحن به ونتأثر أفلو لم يكن هناك يا صاح وحدة بالاصل أهل كان أمكن التأثير ؟ ثم قل لنا عافاك الله يا فريد ألم تر أبداً أحد النيازك ولم تشاهد سقوطها وماهي تلك النيازك ؟ أليست هي قطع من معادن صلبه تنقطع من النجوم فتسوح في الفضاء وتأتينا مجذوبة بقوة التجانس إذ أن الجاذبية كما قال شيخنا

ما هي الا التجانس واذا حللت تلك القطع نرى أنها هي مثل بقية معادن ارضنا واذا اختلفت فانما تختلف عنها اختلافا بسيطا افليس هذا أيضاً دليل قاطع على أن أصل المادة هناك هو مثل أصل المادة التي عندنا فاكتف بهذا واكفني مؤنة ايراد كثير من أدلة العلم على هذا . فقالت فريدة أذن لاشك في أن هناك حياة وأحياء سوف نستطيع يوما ما مواصلتهم والوصول اليهم

أجابها نجيب وقال رويدا رويدا يا أخية أما من جهة وجود الحياة فأنا أشاطرك الراي في هذا واما من جهة المواصلة والوصول فلا . لأن هذا مستحيل في نظري لاني ارى ان الحياة في العوالم الاخرى اذا كانت ثمة حياة فهي حياة خاصة بها كما ان الحياة هنا هي خاصة ايضاً بنا تختلف تمام الاختلاف هذه عن تلك وتلك عن هذه لانه باختلاف التأثيرات تختلف الاجسام والحياة كما بين وأوضح لنا شيخنا ذلك وكما يثبته لنا الواقع أيضاً أفلا نرى ان السمك الذي يعيش في النيل وماء النيل حلو اذا دخل البحر يموت لان ماء البحر مالح أولا نرى ان الحيوانات في مختلف القارات

الارضية تختلف بعضها عن بعض مزاجا ولونا وعيشة وقداً باختلاف جو الاقليم إن لم نقل فهما وتصورا أيضاً أفلا نرى أن مناعة الغربي لاحتمال حر مصر والسودان هي أقل كثيرا من قدرة ومناعة المصري والسوداني على احتمال ذلك الحر وهكذا يقال عن المصري والسوداني اذا وجد في بلاد باردة فأنه لا يطيق برد تلك البلاد مثل أهلها وهذا هو النبات أيضاً في جميع أجناسه يختلف في مختلف البلدان بعضه عن بعض كذا الجماد لم يسلم من هذا بل أن سنة التأثير كما توضح وثبت هي عامة للجميع فكيف أذن يمكننا والحياة تختلف هكذا مثل هذا الاختلاف الكلي أن نواصل أحياء العوالم الاخرى أو نصل اليهم هذا فضلا عن أختلاف تناسب المقادير في تركيب المادة ولهذا فقد قال الكتاب الكريم لقد كلمتكم بالارضيات فلم تفهموا فكيف لو كلمتكم بالسمويات تفهمون . لهذا أراني أجزم باستحالة تحقيق غاية هؤلاء العلماء وعلى كل فان شيخنا لكفيل بان يزيدنا غدا أيضاحاً أما الان فقد كفانا بحثا فهيا بنا نركب أحدى العربات لتقلنا الى بيت الصديقة فريدة

لتوصيلها . فصدعت فريدة وفريد بأشارة نجيب فركب الجميع وسارت العربة مسرعة جهة المدينة وكان قد عاودهم الصمت والتفكير فلم يشعروا الا والعربة بقرب المنزل فنزلوا وودع نجيب وفريد فريدة بعد ان حددوا موعد الغد فدخلت فريدة منزلها وصار صاحبانا كل في طريقه .

شغلت هذه المباحث بال فريده ردحا طويلا من الليل وحرمتها النوم أولا فخرجت الى الحديقة تتمشى فيها ذهابا وايابا ثم جلست على كرسي وقد اعياها المشي ونظرت الى السماء وجعلت تحدق بالنجوم وفيما هي كذلك اذا بشهب نار قد لمع في السماء وانحدر كالسهم كأنه خرج من احدى تلك النجوم وسار سابحا في الفضاء حتى وقع كجمرة نار بالقرب منها فتقدمت منه واذا به قد حفر حفرة في الأرض من عزم السقوط فنادت البستاني حتى أفاق من نومه وأمرته بالنبش عليه ففعل وأخرجه فاذا به حجر اسود ثقيل الوزن فتأملته جيدا فاذا به يشبه في خارجه بعض الأحجار الكرويه الصوانية ولكنه اشد سوادا منها فقالت لقد صدق نجيب في استنتاجه فليس هذا الحجر سوى احدى النيازك ولكن

مما لا أستطيع فهمه هو تلك السرعة التي أنحدر بها من النجم الى هنا فانها لم تتعد بضع ثوان مع أن بعد هذه النجمة عنا حسب العلم يزيد عن مئات الملايين من الكيلومترات فلو قسناها بسرعة سير النور لما وجدنا أقل مناسبة بين سرعة الانحدار وبعد المسافة فلعل هنالك أيضا سر سأستوضحه الشيخ غدا قالت هذا ودخلت غرفتها مسرورة من هذه المصادفة فنامت حتى الصباح .

في أصيل اليوم الثاني تقابل أصحابنا الثلاثة في الميعاد المقرر عند الجسر وساروا جميعا نحو ناديهم على المقعد المذكور وكانت فريدة تقص عليهما قصة نيزكها بالأمس وما لاحظته من السرعة العظيمة التي وصل بها الى الأرض فاثارت هذه المسألة مناقشة فيما بينهم دامت الى ان وصلوا امام المقعد فوجدوا الشيخ جالساً ينظر اليهم بابتسام فقام اليهم وصافحهم وسألهم عما كانوا يتحدثون به بتلك الحدة التي لاحظها فاجابه نجيب وقال اذا سمح الشيخ بابقاء هذه المسألة ريثما اخبره بما كان بيننا بعد ذهابنا بالأمس من هنا فان مناقشتنا اليوم هي نتيجة لمقدمة حديث البارحة حتى نأخذ الأشياء

من أولها فنسير بها متسلسلة دفعا للغموض ولعل الصديقين فريد وفريدة لايمانعان أيضاً بها . فاجاب الجميع بالقبول فاخذ اذ ذاك يسرد ما جرى من المباحثة وما ابداه من التعليل والتفسير حتى وصل الى مسألة التيزك وما أثارته من الاخذ والرد ولما انتهى من ذلك نظر الشيخ الى تلاميذه مليا محدقا بهم النظر كانه يستقرىء ضمائرهم ثم قال

اسمعوا يا أولادي لقد صدق نجيب في استنتاجه عن امكان وجود الحياة في العوالم الأخرى ولكنها لابد وأنها تختلف كلية عنها عما في عالمنا تختلف عنها في الشكل والتركيب والشعور والتصور والفهم حسب ماتتأثر به في عالمها وما يتأثر به ذلك العالم من العوالم الأخرى . افلا ترون اختلاف الاحياء في عالمنا بعضها عن بعض في مختلف القارات اختلافاً سبقت وبينت لكم بعض اسبابه في ماسبق من الكلام وكيف أن الاحياء اليوم هي غيرها في القرون الغابرة المتقدمة كما يثبت لنا ماعثر عليه من بقاياها وأن احياءنا اليوم تبعا لهذه القاعدة ستختلف أيضاً في الاجيال المقبلة عما هي عليه الآن فاذا كان هذا الاختلاف الجزئي والكلي قد حصل وحاصل

وسوف يحصل فينا ونحن جميعاً في عالم واحد فماذا يكون اذاً بون ذلك الاختلاف بيننا وبين تلك الاحياء فى العوالم الاخرى حيث العناصر المتفرعة عن العنصر الاصيل الفرد تختلف قوة وقلة وكثرة عن عناصرنا هنا . فكم من عنصر كان عندنا هنا من قبل وزال اليوم وكم من عنصر هو الآن كائن وسوف يزول غدا وكم من عنصر لم يكن من قبل ولكنه تكون او سوف يكون وكم من عنصر هناك وليس له وجود هنا وكل هذه العناصر لها تأثيرها النسبي على الحياة فاذا كان هذا كله وهو كائن ومثبوت بلاشك فكيف يمكن لاحيائنا أو بالحري لانساننا أن يواصل تلك الاحياء او يصل اليها فلربما كانت احياؤهم أشف مادة أو اغلظ او اثقل او اخف مادة منا فتشبه الأرواح او تشبه الديدان او ليس لها شبه يمكننا ان نتصوره هنا لذا ارى ان المواصلة بيننا وبينهم هي اكثر من مستحيلة واستغرب جداً كيف أن بعض العلماء يشغل وقته وفكره بمثل هذا وأني أيضا على قدر استحالة المواصلة اقول باستحالة الوصول لأن العناصر المكونة للحياة عندنا لايتعدى وجودها مكونة وحافظة بضع العشرات

من الاميال بعيدا عن الارض فى محيطها من الاجواء مع ان أقرب عالم منا يقاس بعده بما لا يقل عن الملايين العديدة من الاميال فاذا افترضنا وحصنا تلك الاحياء أو تلك الآلات الذاهبة منا اليهم بما يقيها مغبة التأثيرات في محيطنا فماذا نتقي تأثيرات العناصر الأخرى وهي مجهولة لدينا في المحيط القادمة اليه مجهولة اسما ومجهولة تأثيراً بل لربما الحي الذاهب منا بآلته إلى ذلك العالم أو لربما تلك العلامة المرسلة منا اليهم مدفوعة بما تبين لنا من القوى مثل الراديوم مثلا يتحولان عند أول مصادمة لما تحويه الأجواء من مختلف العناصر فيتأثران بها ويتحللان وينضمان اليها فلا يبقى منهما لا أثر ولا عين .

لقد عجبت فريدة من سرعة وصول النيزك الى أرضنا عند انفصاله عن النجم مما أثار مناقشتكم ولها أن تعجب من ذلك ولكني لايضاح ذلك أقول لكم أن ذلك النيزك اذا كان حقيقة انقطع عن نجمه وسار نحونا فانه لابد وأن يكون قد سار قبل ظهور نوره أمداً يتناسب مع سرعة سيره ولم يظهر لأعيننا الا عندما اقترب منا قربا يتناسب مع

قوة نوره وسرعة سير النور وتلك المسافة التي كانت بقيت له للوصول الينا او ان يكون قد تكوّن لساعته في تلك الاجواء العلوية وسار نحونا لقربه منا مدفوعاً بقوة جاذبية أرضنا أعني بقوة التجانس اذ أنه من المحتمل جداً لا بل من المعقول قياساً ومنطقاً ان الخلق أو التكوين دائم أبدا بما تأخذه الاجرام بعضها من بعض وبما ينتج عن العنصر الأصيل الفرد المالىء للكون اجرامه وفضاءه وليس من الضروري اذاً على ما ارى أن تكون جميع الكواكب قد خلقت مما في عموم الافلاك بل ان التكوين دائم مستمر :

ألا فاعلموا يا أولادي أن عموم اجزاء هذا الكون الفسيح الذي لا ابتدا ولا نهاية له هي مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا محكما نظرا لوحدة أصلها ولا يغرنكم تغير الاشكال فان هذه الاشكال تتغير وتختلف باختلاف التأثيرات زمانا ومكانا ولكم على هذا بعض الادلة والادلة على هذا هي في كل شيء مما كان من هذا القبيل الذي راته بالامس فريدة فانه قد كان له في سيره الينا شكل وعند ما وصلنا شكل ولما استقر اصبح له ايضا شكل آخر لان اصل المادة واحد والمادة في

درجتها الثانية واحدة ايضا ولا يبتديء الاختلاف بالمظاهر الا في الدرجة الثالثة اى عند اكتمال تكوينها بالنسبة الينا ولحواسنا اذ يزداد شعورنا بها على قدر تجانسها مع العناصر المكونة لنا لانه كلما زادت صلة التجانس زاد الشعور بالتأثير .

إن جميع ما نراه وما نشعر به فينا وفيما حوالينا وجميع ما في الأكوان نرتبط به ويرتبط بنا ونؤثر عليه ويؤثر علينا نسبيا لأن الاصل واحد يتجلى بمظاهره لا فرق فى ذلك أن كان ماديا أو روحيا فالفكر له تأثيره والاجسام لها تأثيرها والاصوات لها تأثيرها فهذه تؤثر على تلك وتلك على هذه كما أن للأصوات أيضا تأثيرها على الجماد والنبات والحيوان تأثيرا يفوق الوصف فهي تلين الحديد وتدك الابراج والمباني وتسترق العواطف وتثير الأشجان ولكم على أفعالها شاهد بيّن فيما حصل بأسوار أريحا اذ سقطت رغم متانتها من أصوات الألحان والتهليل فقال فريد صحيح هذا فاني قد قرأت أخيرا أن بعض القواد أمر فرق جنده بعدم العزف على آلات موسيقاها عند مرورها على الجسور لما ثبت لا آل

الخبرة من التأثير الذي تسببه أصوات الموسيقى لمباني الجسور حتى أنها لربما تهدمت بمن يسيرون فوقها فتابع الشيخ حديثه وقال لقد سبق وقلت لنجيب في بدىء الحديث أن الكائنات جميعها تتصارع بعضها مع بعض سيان في ذلك الجماد والنبات والحيوان تحت تأثيرات شتى وعوامل مختلفة فتتبدل أشكالها وتتغير من حال الى حال مع كرور الزمن وتوالي الايام لافرق فيما بين أرضنا وما فيها وما عليها وبين بقية الاجرام والعوالم الاخرى حيث ان الكل من أصل واحد ويتبع نظاما واحداً فان الكائن مهما كان كبيرا أو صغيرا من الذرة الى الميكروب الى أرضنا كلها الى بقية الاجرام الاخرى التي يفوق بعضها أرضنا كبرا بملايين من المرات يبقى حافظا لشكله الذاتي على قدر مناعته أمام غيره حتى اذا قلت هذه المناعة أوزادت تغير الشكل الى آخر وعليه فلا أنتم باقون كما كنتم ولستم باقين كما ستكونون ولا النبات كذلك ولا الجماد أيضاً ولا الأرض ولا أي عالم آخر فان أرضنا هذه لا بد يوما ما أنها اما أن تلتحق بنجم آخر أو بنجوم عندما تقل مناعتها بالنسبة الى ماحواليها من العوالم

أو تتجزأ أو تنضم بدافع التجانس أو أن ينضم اليها ما هو أقل مناعة منها فيتغير شكلها عند ذلك الضم أو الانضمام وما يتبع ذلك في العوالم الأخرى مما يجري متأثراً بهذا الضم أو الانضمام ولهذا فقد قال الكتاب عند الكلام على انتهاء العالم أن النجوم تتساقط والأرض تزلزل الى آخر ما جاء في هذا الصدد لأن الجميع مرتبط كلية وأجزاءاً بعضه ببعض لأن أصل الكل واحد ولهذا وجب أن ما كان وما هو كائن وما سيكون بعالمنا يكون أيضاً في العوالم الأخرى اذاً فان الحياة يجب أن تكون في العوالم الأخرى كل بحسب حالته فكما أن العنصر الأصيل الفرد تجلى كاملا هنا كذلك يتجلى هناك بجميع مظاهره

عندئذ قال له نجيب لقد تبسط الشيخ في حديثه معنا عن مظهر العنصر الأصيل الفرد ولم يذكر لبقية المظاهر أو بالأحرى للمظهر الثالث إلا مرة أو مرتين عفوا فهل له الآن أن يمن علينا بالشرح عنه بما يشفي غليلنا ويثير أذهاننا كما سبق فوعدنا أجابه لطلب الصديق فريدفيما مضى عن ذكر الاحياء وما فيها من المظاهر الثلاثة فأجابه الشيخ

وقال نعم لقد وعدت وسأفي بوعدي ولكن ليس في هذا المكان بل فليكن اجتماعنا غدا أمام أبي الهول والآن فقد حان الوقت لذا فاني أستودعكم الله الى الغد فالموعد غداً أمام أبي الهول قال هذا وحياهم وسار مسرعا ودلائل الاهتمام على وجهه فنظر فريد وفريده الى نجيب مستفهمين متسائلين عن سبب تغيير المكان وعن ذلك الاهتمام الذي بدت علاماته على وجه الشيخ عند هذا السؤال فأجابهما نجيب وقال اذا لم يخطئ ظني فاني عرفت لماذا ولكن لا تسألاني فلا يجب أن نسبق الحوادث

الفصل التاسع

هل توجد حقيقة وما هي بالحقيقة الحقيقة

في اليوم الثاني دعا نجيب فريداً وفريده لتناول الغذاء في الفندق قرب الاهرام معه فلبّيا الدعوة وركبوا احدى السيارات فقلتهم الى هناك

وبعد تناول الطعام قام أصحابنا الثلاثة يتمشون في حديقة الفندق ينتظرون بفروغ صبر حلول الميعاد ليذهبوا

امام أبي الهول لمقابلة الشيخ وكانوا يتحدثون بأمور شتى في مواضيع مختلفة وانما الحديث شجون فقال نجيب قل لي يافريد أين امضيت السهرة أمس فأجابه فريد لما تفارقنا مررت على القهوة فوجدت هنالك سليما ومعه بعض الاصحاب يلعبون الشطرنج فدعوني للجلوس معهم ولما كانت هذه اللعبة تسرني لما تستدعيه من التفكير والحساب قبلت الدعوة وجلست معهم وكانت اللعبة على رهان كسبه سليم فسر سرورا عظيما ومن شدة سروره بالمكسب دعانا جميعاً لشرب كأس خمرة معه فلم نشأ ان نعكر عليه صفوه فقبلنا ذلك ثم انصرفنا كل الى منزله فقالت فريده أنه مما لا يعجبني في أخي سروره من أقل شيء وتكدره من أقل شيء فبينما نراه يغضب لكلمة نراه أيضا يرضى لكلمة ويتحول كدره الى سرور مثل الأطفال فما سر الفرح والكدر في الانسان يا ترى وما هو سر الشعور بالألم واللذة فان هذه الابحاث كثيراً ما شغلت فكري فاماذا سر سليم بمكسبه هذا يا ترى ويا ليتني كنت فطنت الى هذا قبلا فسألت الشيخ عنه لاني اليوم لا أرى وجها لمثل هذا السؤال لاختلافه عن موضوع

الحديث فقال نجيب أن هذه المسألة لهي بسيطة حسب رأيي وأعللها بزيادة او نقصان احد العنصرين عن الآخر فان الانسان اذا خسر شيئا مثلا قل سلبيه الذي اعتاده فينقبض ويغتم اما اذا كسب شيئاً زاد ايجابيه فينشرح لأن الكدر والفرح والألم واللذة ما هو الا الشعور بزياة أو نقصان أحد هذين العنصرين بدخول قوة على احدهما او خروج قوة عن أحدهما ويبقى هذا الشعور الى ان يتعادلا بما يأخذه الناقص من مختلف القوى أو الى أن يتساوى الزائد به بما يذهب عنه من الزيادة أما اذا تعذرت المعادلة جرى الانفصال لان الفرح يميت والحزن يميت وهذه مسألة أصبحت لدينا طبيعيه بما سبق لنا سماعه من الشروح .

وفيما هم كذلك اذ هبت عاصفة شديدة مما يندر حدوثه فأبرقت السماء ودوى صوت الرعد بشدة وابتدأ المطر يهطل فهرولوا مسرعين الى الفندق ومكثوا فيه يراقبون هذا المنظر حتى هدأت الزوبعة وعاد اديم السماء فصفا ثانية .

حل ميعاد المقابلة فخرج الثلاثة وساروا مشيا ناحية

ابي الهول ولما وصلوا وجدوا الشيخ قد سبقهم الى هناك ولما رآهم قادمين تقدم للقائهم بضع خطوات ففرحوا به وحيوه بكل احترام

ثم جاءوا الى بعض الاحجار الكبيرة فجلسوا عليها ولما استقر بهم المقام قالت فريدة لعلنا لم نبطيء على الشيخ فقد كنا قادمين قبل الآن لنكفيه مؤنة انتظارنا ولكن المطر داهمنا فرجعنا من حيث اتينا فان هذه العاصفة لم تكن بالحسبان فمسكين هو الانسان كم هو ضعيف أمام قوى الطبيعة . فقد كنت طول هذا الوقت عند ما كانت الارياح تعصف والبرق يلمع والرعد يقصف والامطار تهطل أفكر بهذا وأنظر الى حقارتي بالنسبه الى ذلك ولكن كنت في الوقت ذاته أشعر أيضاً بعظمة نفسي أمام كل هذا فأقيس ضعفي بهذه القوى فلا أفهم لعظمة نفسي من سبب فاجاب الشيخ وقال اسمعي يا ابنتي ان شعورك بالحقارة هو بالنسبة لجسمك المادي أمام عظمة تلك القوة التي تفوقه لان المادة التي به هي جزء حقير بالنسبة للوحدات الاخرى فالمادة ولو انها في اصلها عظيمة الا ان ما طرأ عليها من التغييرات والتجزيئات وما تكوّن منها من الوحدات

بعدها عن الاصل ووضعها تحت الحس والمقارنة أما شعورك رغم ذلك بالعظمة النفسية فهو بالنسبة لروحك لان الروح هي رأسا من الاصل الفرد العظيم المثلث المظاهر المالىء للفضاء والذي منه كل الكائنات فهي راساً من مظهره الثالث

لقد سألني نجيب امس كما سألني فريد من قبل عن هذا ولقد تكلمت مرارا عنه في سياق الحديث والآن اقول لكم بأن الروح هي تلك القوة التي تصدر منبثقة من اجتماع السلبي والايجابي وهي في الاحياء كاملة لانها شاعرة مدركة محركة بذاتها اما في الكائنات الاخرى فهي كامنة ناقصة لا قدرة لها بذاتها بل تظهر عند اجتماع العنصرين فالسلبي فيه روح ولكن لاقدرة له على اظهارها بغير الايجابي والايجابي فيه روح ولكن لاقدرة له على اظهارها بغير السلبي ولاقدرة لاحد العنصرين على التكوين بدون الاخر ولا اجتماع لهما بدون انبثاق الروح منهما ونرى لهذه الحقيقة مظهرا يؤيدها في كل شيء فمثلا لولم يتلاق السلبي والايجابي لما كنتم رأيتم نور البرق ولا سمعتم قصف الرعد الان لذا كانت الاحياء

وسيدها الانسان بالنسبة لرقي روحه اشبه الاشياء بالله عز وجل ولهذا دعي الناس ابناء الله وما الله عز وجل سوى تلك القوة الفائقة الخالقة العاقلة وذلك العنصر الاصيل الفرد المثالث المظاهر الاصل الوحيد والمرجع الوحيد لذا ايضا فان كل قوة هي من الله لانه هو المصدر الوحيد لجميع القوى

فهذه هي الحقيقة التي بدت لي أقولها لكم يا أولادي وهذا هو السر الذي ائتمنت الاجيال أبا الهول عليه يبوح به الان وما بقية الاشكال والمظاهر سوى خيالات لا حقيقة بالحقيقة لها سوى ما بها من العنصر الاصيل الفرد فقط

قال هذا وذهب عنهم تاركا عصاه وجرابه لنجيب

ملحوظة . وقع خطأ بصحيفة ١٦ السطر السادس كلمة غير وصوابها خير

في ظلال الحقيقة

إنما الحكمة بنت الاختبار، تقتنيها النفس بعد الاعتبار. بهذا البيت الشعري؛ يستهل «نجيب أشعيا» مؤلَّفه الذي بين أيدينا، ليأخذنا معه في رحلة فكريَّة ذاتيَّة بين دروب الكون وأمصاره، نغرق معه خلالها في البحث عن المعنى، ونتوَّق مثله للوصول إلى حقائق الوجود وخباياه، طالبين السُّكنى، وسعادةً لا تتأتى إلا لباحثٍ نهم حصد بعد عناءٍ مبتغاه. وإذ كانت الحكاية هي الوسيلة الأقرب للنفس في السرد والتعبير ، فإذا بالكاتب يصوغ أفكاره في قالب قصصي ممتع، تبدأ أحداثه بلقاء غير معتاد بين «نجيب» الذي كان يجلس حائرًا متأملًا فيما حوله، وبين أحد العابرين من دراويش الطريق، تتلاقى روحَيْهما دون سابق ميعاد ليبدآ حوارًا شيِّقًا، تتبعه رحلةٌ طويلةٌ يلتقيان فيها بـ « فريد وفريدة »، وذلك في سلسلة من الأحداث ستجتذبك لمتابعتها، ولمشاركة أبطالها نهم البحث وفضول المعرفة .